قراءة في كتاب **(الغيبة الكبرى)**

المؤلف : السيد الشهيد **محمد محمد صادق الصدر** قدس سره

الطبعة : دار التعارف – بيروت , ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

القارئ : علي الإبراهيمي

البحث والتنقيب في التاريخ أمر يحتاج إلى جهد مؤسسي ، لما لحق بالتاريخ من هذر أقلام السلطان وأصحاب المصالح . واذا كان هذا التاريخ مرتبطاً بعقيدة الناس ويؤسس لدين الإنسان فهو أكثر تعقيداً في إعادة صياغته . أما حين تكون روافد القضية التاريخية تصب في المياه العذبة لمستقبل البشرية عموماً , بتعلقها بفكرة المخلّص الكبير الذي ينقذها مما صنعت أيدي الظالمين , يكون حينها الباحث أمام ضرورة مناقشة كل الأطروحات الملتفة والمتشابكة , لفصلها وتمييزها ، من أجل بيان الطريق القويم الذي على البشر معرفته , ومن ثم سلوكه نحو الدولة الإلهية العادلة . وهذا ما فعله السيد الشهيد (محمد الصدر) – قدس سره– في الجزء الثاني من (موسوعة الإمام المهدي) المعنون ب(تاريخ الغيبة الكبرى) .

مبتدأ بـ**الحياة الشخصية** لهذا الإمام العظيم الموكول له إسعاد البشرية ، مرجحاً إمكانية زواجه في فترة من فترات حياته ، على اعتبار أنه مكلف بالواجبات والمستحبات الإسلامية قبل غيره .

وليس بالضرورة أن يكون زواجه بعنوانه الصريح ، فأطروحة " خفاء العنوان " ، التي يراها السيد الشهيد الصدر بديلاً أكثر نفعاً وأكثر منطقية من أطروحة " خفاء الشخص " التي يؤمن بها المتكلون على " المعجزات " ، كفيلة بزواجه دون إلحاق الضرر بحياته الشخصية ، بل وإمكانية الانجاب أيضا . فالإمام عليه السلام في حياته الطويلة يسعه التنقل بين عدة مدن على الأرض والبقاء لعدة عقود بعنوان ثانوي .

لا سيما أن الروايات المعصومة – في المجمل – تشير إلى سكنه في عدة أماكن وانتقاله بينها ، رغم أن الأرجح اختصاصه بالأماكن البعيدة الوعرة ، وهذا ما تشير إليه أيضاً المشاهدات المروية لمن التقوا به عليه السلام ، والذي شاهدوه في أماكن مختلفة على الأرض .

أما رجاحة أطروحة " خفاء العنوان " على أطروحة " خفاء الشخص " فيفرضها رجحان وقوع التكليف الإسلامي الواجب على الإمام المهدي عليه السلام كما يقع على غيره ، ولا عذر له بترك الواجب إذا كان " خفاء العنوان " كافياً في توفير أمانه الشخصي وحفظ حياته لأداء رسالته ، وهذا ما يؤيده إنقاذه وتدخله في حياة عدة أشخاص مؤمنين انقطع بهم .

وعمله عليه السلام قد يكون مؤثراً بنحو تأسيس الأفكار والأعمال والمجتمعات والمؤسسات العادلة والإسلامية أو الإصلاحية الصالحة ، بعنوانه الثانوي ، بحيث لا يثير انتباه الناس إليه ، على نحو إيجاد شرارة العمل الناعمة ، والتي لا تحظى بانتباه الناس الواعي عادة . مما يحفظ حياة الإمام عليه السلام ، ويعطيه الفرصة لاستئناف جهوده في مكان أو زمان اخر . وهو لا شك يترك للمؤمنين تتمة العمل ، دون أن يعرفوا حقيقته ، ولهذا يظل ذلك التأسيس المهدوي الصالح خاضعاً في تطوره وثماره لجهود المجتمع المؤمن ومدى قدرته على تنميته .

أما لماذا لم يظهر لإنقاذ شيعته في القرون السالفة ، رغم أنهم تعرضوا لمشاكل جمة ، فهذا ناشئ عن ضرورة هذه البلاءات لتمحيص هؤلاء الشيعة ، كما أن هذه المشاكل لا تعد شيئاً أمام مشاكل البشرية الأكبر والتي ادخر الإمام لمعالجتها ، فليس من المنطقي تعريض حياة الإمام للخطر بناءً على خطورة أقل .

ولما كانت البلاءات ضرورية لتمحيص شيعة الإمام خاصة ، والبشرية عامة ، كانت الروايات التي تتحدث عن وجود مجتمع إسلامي مثالي يعيش فيه الإمام في جزر البحر الأبيض المتوسط غير منطقية وغير منتجة . كما أن هذه الروايات لا تستقيم في انكشاف جغرافيا كل متر من الكرة الأرضية مؤخراً ، حيث لم تظهر تلك الجزر . ولا معنى لاختفائها هي أيضاً مع عدم ضرورة وجودها إذا كان بالإمكان حفظ الإمام دونها من خلال الاطروحتين " خفاء الشخص " أو " خفاء العنوان " ، بل إن وصول سفن الرواة إلى هذه الجزر تكشف أنها غير مخفية ، وبالتالي هي غير موجودة .

كما أن خارطة مقابلاته عليه السلام تؤكد أنه على الأغلب يسكن في العراق ، ولا يخرج منه إلا لضرورة . هذا بالإضافة إلى الروايات التي تشير إلى سكنه في أماكن أخرى غير هذه الجزر كالمدينة المنورة . مع ملاحظة أن المجتمعات غير الشيعية لا تؤمن في الغالب بولادة الإمام عليه السلام ، وبالتالي هي غير ملتفتة لوجوده وغير مهيئة نفسياً لمعرفته .

فيما أن المجتمعات النموذجية المزعومة في روايات (المازندراني) و (الأنباري) ناقصة لا اقل في اثني عشر جهة عن المجتمع الإسلامي المثالي الذي يريده المعصوم عليه السلام ، ولا تتناسب مع دولة يشرف عليها الإمام المهدي المذخور لدولة العدل الإلهية . فهذه المجتمعات مبنية كما يبدو على ذهنية الرواة المرتبطة بقرون وجودهم القديمة المعتمدة على التأسيسات والبنى التحتية البدائية أو شبه البدائية ، كما أن الحاكم هو ذات الصورة عن حكام البلاد الإسلامية في القرون الوسطى ، وهذا ما لا يناسب دولة بتعقيد دولة المهدي العظيمة . كما أن انشغال الحاكم في الروايات بالمذهبية وجدالها يكشف عن ترددات نفسية تناسب عصر الرواة ، فيما تنشغل دولة المهدي بالإسلام . بينما تخلت هذه المجتمعات المزعومة عن واجب اسلامي مهم يتمثل بالعمل لهداية البشرية .

مقابلات الإمام المهدي عليه السلام ناشئة لا شك من وقوع الواجبات الإسلامية – مع توفر شروطها – عليه ، لذا اقتضى حاله الخروج لإنقاذ أو ارشاد شخص أو مجتمع . وهذا ما يؤكد عدم انعزاله في مجتمعات نائية .

ولتلك المقابلات قواعد وأهداف وصور . تقوم اهم القواعد على حفظ حياته مع تحقيق غاية المقابلة . لذا هو ربما يظهر بمعجزة من " خفاء الشخص " ، إلا أن ذلك يستتبعه عدة معاجز أخرى ، كإثبات شخصيته واختفائه مرة أخرى . فيما عند ظهوره وفق أطروحة " خفاء العنوان " فهو غير محتاج سوى لإقامة الحجة ، إذا كان يريد للرائي أن يعرفه بشخصه ، أما إذا كانت الغاية تحقيق هدف المقابلة فقط فلا يحتاج الإمام عليه السلام سوى إلى التواجد العادي مع الشخص أو في المجتمع المطلوب . فيكون ظهوره عليه السلام مرة بعنوانه الحقيقي وبشخصه ، لأشخاص مستحقين هذا الوجه الكريم مثل السفراء الأربعة له عليه في عصر الغيبة الصغرى ومثل السيد (مهدي بحر العلوم) كما هو منقول ، ومرة بعنوانه الحقيقي مع غفلة الرائي عنه حتى يذهب ، ومرة بعنوانه الثانوي . والاخير قد يكون متحققاً لجميع الناس في المجتمع الذي يعيش فيه الإمام عليه السلام .

فيما يسلك المهدي عليه السلام في مقابلاته الطرق الطبيعية للسفر البعيد ، إذا اقتضت الحاجة وكان الطريق مأموناً ، إذ أن الطريق غير المأمون يسقط وجوب العمل إسلامياً عن الإمام عليه السلام . بينما يمكن للإمام سلوك الطريق الاعجازي للسفر إذا اقتضت ضرورة قصوى تحقق المعجزة وفق " قانون المعجزات " الذي يؤمن به السيد الشهيد الصدر قدس سره . لكن ربما لا يحتاج المهدي عليه السلام إلى كل ذلك إذا كان العمل قريباً في مجتمعه الذي يتواجد فيه ، أو حدث في طريقه صدفة واقتضت الضرورة تدخله .

إن مقابلات المهدي عليه السلام كانت في الغالب لقضاء حاجات شخصية لشيعته أو غيرهم ، ولا يوجد في الروايات المعلومة الا القليل من القضايا العامة . لكن بما أن الروايات المعلومة ربما تكون أقل القليل من المقابلات الحقيقية للإمام التي لم يروها أصحابها فيمكن أن تكون هناك قضايا اجتماعية كبيرة كان فيها الإمام

موجوداً عليه السلام . وربما يكون في معرفة الناس لتدخّل الإمام عليه السلام في القضايا الاجتماعية العامة مفسدة ، كاستفزاز الظالمين مثلاً وتنبيههم ، وبالتالي سعيهم في إبطال العمل الصالح .

والروايات المعلومة لمقابلاته عليه السلام بنحو المائة ، رواها صاحب " بحار الأنوار " ، وجمع مائة كاملة منها صاحب " النجم الثاقب " .

والمقابلة الواحدة عادة تتضمن معجزة ، أو أكثر إذا كان الشخص يحتاج إلى بيان اعجازي اكبر بحسب حاله ، أو أن الإمام عليه السلام يخصه باهتمام بالغ .

كما أن أخبار مشاهدة المهدي عليه السلام قد تكون مباشرة ، مع معرفة الرائي لحاله ، أو مع عدم التفات الرائي إلا لاحقاً ، أو مع عدم التفات الرائي إلا بعد التأمل ، أو غير مباشرة ، كما في التوسل إلى الله لقضاء حوائج الناس بالإمام عليه السلام فتقضى ويكون ذلك حجة على الداعي ومن اطلع على حاله ، أو من خلال الرؤيا المؤثرة في الواقع ، أو المتضمنة لمعجزة كشفاء الرائي في اليقظة مثلا ، لأن الأحلام قد تكون عبثية ناشئة عن مداخل نفسية في الغالب .

وقد يكون المشاهد للإمام عليه السلام يعرفه بعنوانه الثانوي من قبل ويعرف له نسباً ما ، لكنه لم يكن ملتفتاً لعلم الإمام وسعة فهمه ، حتى يتحدث الإمام في قضايا علمية معقدة تلفت انتباه المشاهد .

إن أغلب أخبار مشاهدة الإمام المهدي عليه السلام تركزت في العراق ، لا سيما في جنوبه . وهذا لا يمنع من تحقق بعضها خارجه ، مع الالتفات إلى إمكانية عدم نقل المثير من روايات المشاهدة لأسباب مختلفة ذاتية وموضوعية .

واختص العراق ، التاريخي ، بما هو امتداد جغرافي وثقافي واحد والذي يشمل جملة كبيرة من بلاد إيران ، بسكنى الإمام عليه السلام ، وفيه عاصمته العالمية المستقبلية ، ليس لأسباب عنصرية أو تمييزية ، بل لخصائص تمتع بها العراق ، من توسطه بلدان العالم الإسلامي ، وكونه مرتكزاً لشيعة أهل البيت عليهم السلام ، ولأن منه أكثر قادة دولة العدل الإلهية ، بسبب تعرّض هذا البلد لمظالم كبيرة ساهمت في تمحيص الكثير من أبنائه وصقلهم إسلامياً وعمليا .

والملاحظ أن مقابلات الإمام عليه السلام المروية للناس لم تتضمن توجيهاً عاماً بنحو يغيّر واقع المشاهد أو المجتمع . وذلك ناشئ من التزام آل محمد عليهم السلام بالحديث إلى الناس على قدر عقولهم ، وعدم تكليفهم

ما لا يسعهم استيعابه . بعد التنزل عن طريق " المعجزة " في إفهام السائل ، لعدم تحقق شروطها ، ولوقوعها في منطقة " الجبر " فلسفياً . كما أن التربية الطبيعية للفرد المسلم تتطلب زماناً طويلاً نسبياً لا تسعه الدقائق المعدودة للقائه بالإمام عليه السلام . وربما تكون بعض التوجيهات غير منتجة في الخط العام للإصلاح الإلهي لأنها قد تؤدي في النتيجة إلى عدم حصول ظروف التمحيص المطلوبة لصناعة مجتمع قادر على حمل رسالة المهدي الإلهية . كما أن بعض الأفراد قد يحجبون عنا تلك التوجيهات لأسباب دينية ، أو لأنهم لم يفهموا فحواها . فيما يستطيع المهدي صناعة رأي عام إسلامي صالح بعيداً عن تلك اللقاءات المحدودة ، وذلك من خلال تواجده الاجتماعي في ظل أطروحة " خفاء العنوان " . فلا يكون مورد الظهور المحدود حينها الا قضاء حاجة الفرد أو الجماعة المحدودة العدد والإمكانات العقلية .

كما أن هناك مرجعاً آخر في المسألة لم يذكره السيد الشهيد الصدر قدس سره ، وهو أن الكثير ممن عاصروا أئمة أهل البيت عليهم السلام ، ومن قبلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واستمعوا إلى توجيهات مهمة ومفصلية على لسانهم ، لم تكن حياتهم لتتطور بنحو إسلامي صحيح ، بسبب إهمالهم ، أو بسبب انشغالهم كأفراد طبيعيين يتعرضون لحياة مادية . بل إن بعض المجتمع الإسلامي العام الذي عاصر أئمة أهل البيت والتقاهم وجهاً لوجه حاربهم وقتل أبناءهم واستحيى نساءهم . وإن كان أولئك الناصبون العداء لأهل البيت اقل في معرفتهم ودينهم ، فبعض أصحاب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام انحرفوا عنهم ، حتى لعنهم المهدي عليه السلام . ومعنى هذا أن اللقاء بالإمام عليه السلام وحده ليس منتجاً للغاية الإسلامية الكبرى إذا لم يكن الشخص قد خضع لتربية خاصة صالحة .

ومقابلات المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى قد استدعت أن تكون مع الموثوقين العالين لأسباب أمنية ، فهو في غيبته الكبرى غير محتاج إلى هذا المستوى من وثاقة الناس عند مقابلته ، لما خفي عليهم من شكله ، وليأس السلطات منه وانكارها وجوده . فهو لذلك قد يظهر للمنحرفين ، وإن كان بنسبة أقل ، إذا اقتضت الضرورة وتوفرت شروط أمانه . ويغيّر المهدي عليه السلام من زيه ولهجته في مختلف المقابلات ، لأسباب أمنية تخصه ، أو نفسية تخص المشاهد .

كما أنه يأخذ الاحتياطات والتدابير اللازمة لحفظ حقيقته ، مثل عدم كشف اسمه وعنوانه ، أو اشغال الرائي بنفسه وحاجته ، أو اشغاله بمعجزة صنعها الإمام عليه السلام . لكن مع توفير مساحة اعجازية مناسبة لحال الرائي يستطيع من خلالها معرفة أن الذي حدّثه أو قضى حاجته هو المهدي عليه السلام ، لكن بعد مرور مدة

، كقطع الإمام مسافة طويلة بوقت قصير ، أو عبوره من مكان فيه وحوش وسباع تجعل من المستحيل على الإنسان العادي عبوره . ويترك الإمام إتمام إنجاز حاجة المشاهد إلى نفس المحتاج ، أو إلى انسان ثالث عابر أو خادم للإمام عليه السلام .

ولما لم تكن كل مقابلات الإمام المهدي عليه السلام شخصية بحتة ، رغم كون عمومها كذلك ، فهناك جملة من الغايات العامة التي أنجزها المهدي عليه السلام في بعض مقابلاته . منها إنقاذ شيعته من مؤامرات تهدد وجودهم حيكت من قبل الظالمين ، كما فعل في البحرين . ومنها تسهيل الممارسات الدينية العامة التي فيها نوع من التربية المطلوبة لحفظ قواعد الإمام عليه السلام في بلد ما ، كما في فتحه طريق زوار الحسين عليه السلام إلى كربلاء ، بعد إغلاق عشيرة (عنيزة) – كما في المصدر وربما هي (عنزة) ذاتها بعد المراجعة التاريخية – له في العصر العثماني . ومنها إيضاح أن الأمة بلغت ام لم تبلغ المستوى المطلوب من التربية الإسلامية الإمامية الذي يكون كفيلاً بتحقيق شرط ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، كما ظهر لشيعة البحرين حين طلبوا لأيام قيامه بالسيف . ومن خصائصه عليه السلام وضعه الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة بعد أن سلبه القرامطة ثم ارجعوه بعد ثلاثين عاما ، وهو الحجر الذي طالما اختص الأنبياء والأولياء بوضعه في مكانه .

وللمهدي عليه السلام في مقابلاته الفردية ربما نتائج لها منحى اجتماعي عام ونفع أوسع ، مثل هداية الشخص وضمه إلى المجتمع المؤمن ، وانتصاره لشيعته في الجدالات المذهبية ، وحل المشكلات المعضلة التي قد تواجه العلماء المحققين ، كما جرى مع السيد (الاردبيلي) ، وسبقه ببيان الاخبار والحوادث السياسية المهمة لمناطق بعيدة عن مركز الحدث في أزمة تنعدم فيها الاتصالات المباشرة ، ورفع معنويات الناس ، لا سيما التجار المؤمنين ، لتعزيز حضورهم ، ومساعدة الآخرين مالياً لتعزيز التعاضد الاجتماعي ، وشفائه لأمراض بعض المعاندين لإقامة الحجة عليهم لغرض هدايتهم إلى مذهب الحق أو الاعتقاد بالإمام عليه السلام ، وهداية التائهين في القفار ، وربما اقترن ذلك مع إقامة الحجة عليهم لهدايتهم ، لا سيما من الأعراب ، وتعليم الأدعية عالية المضامين لبعض الشيعة ، لتكون مورداً معرفياً غير مراقب سياسياً ، ما يشبه أدعية الإمام السجاد عليه السلام العظيمة ، وقد كان المهدي عليه السلام يعلّم بعض من يلتقيهم أدعية آبائه عليهم السلام ذات التعاليم الإسلامية والمفاهيم العالية المضمون ، بنحو يجعل الداعي من أهل التربية الإسلامية الكريمة . فنجد أن الإمام عليه السلام يذهب في قضائه للحاجات الفردية إلى ما هو أبعد منها اجتماعيا .

والمهدي عليه السلام لا يحتجب عن شيعته الا لداعي التقية والخشية من الظالمين ، واذا ارتفعت موجبات التقية بارتفاع الخوف على النفي أو المحترمات لم تجب الغيبة ، وقد يظهر الإمام عليه السلام بعنوانه الحقيقي ، مؤقتاً أو دائما ، وقد يكون ظهوره مسموحاً لمجموعة بلغت من الإخلاص ما يكفي لحفظ أمنه.

فقد كان المهدي يظهر للسيد (مهدي بحر العلوم) بحقيقته في عدة أماكن ، كما أن بعض الروايات تكشف مرافقة البعض له كأعوان ، فيما القصة التي ينقلها السيد (محمد الصدر) عن السيد (محمد باقر الصدر) عن السيد (الخوئي) عن رجل يوثقه الاخير ويجله تكشف أن المهدي عليه السلام كان أحياناً يصلي الجماعة إماماً في المسجد الكوفة برفقة أشخاص يعرفونه ويأتمرون بأمره ويسمونه "سيد العالم" ، بلغوا من التمحيص الكامل ما لم يبلغه هذا الراوي المؤمن الورع ، الذي رفض الإمام التحاقه بركب معاونيه .

رسائل المهدي عليه السلام إلى الشيخ (المفيد محمد بن محمد بن النعمان) ارسلها الشيخ (الطبرسي) ارسال المسلّمات ، لذا فهي وإن لم يمكن الاستدلال عليها سنداً إلا أنها تضمنت – كما يرى السيد الشهيد الصدر قدس سره – مضامين عالية واعية وإشارات رمزية تنبؤية لا تصدر إلا عن الإمام عليه السلام .

وكانت هذه الرسائل ضرورية لخاصتين فيها ، أنها كانت في بداية الغيبة الكبرى له عليه السلام ، ومن ثم أراد وضع القواعد العامة لشيعته منذ البداية تلك ، وكذلك لإتمام ما بدأه ابوه (الحسن العسكري) عليه السلام من نقل زمام الأمة إلى قيادة العلماء المجتهدين عند غيبة إمامهم ، فكان الشيخ (المفيد) أبرز الوجوه التي يصلح أن يكتب لها الإمام المهدي عليه السلام.

وقد جاءت الرسائل الاولى من ناحية الحجاز قبل وفاة (المفيد) بثلاثة أعوام ، والثانية من مسافة أكثر من ثلاثة أشهر عن ديار (المفيد) قبل وفاته بعام ، والذي توفي في العام ٤١٣ هجري . أي ما يقرب من ٨٠ سنة بعد وفاة آخر سفير للإمام المهدي عليه السلام وهو علي بن محمد السمري ، حيث انتهت الغيبة الصغرى وبدأت الكبرى في العام ٣٢٩ هجري . والرسالتان بإملاء الإمام وخط بعض ثقاته ، كما أنهما تضمنتا خطه للتوثيق .

ولقد كانت الحوادث السياسية التي عاصرت زمان الرسالتين مضطربة ، حيث الخلافة العباسية لا زالت بيد (القادر) الذي أخبره أمير المؤمنين علي عليه السلام في المنام من قبل بأنها تصير إليه ويطول فيها حكمه ، وكذلك الخلافات داخل البيت البويهي الحاكم في العالم الإسلامي ، وفتنة ابن باديس في شمال أفريقيا وقتل جميع الشيعة ، واستقلال الفاطميين بالخلافة في مصر ، والفتن الطائفية في بغداد ، والاضطرابات الفكرية من البعض في البيت الحرام ، وتعرّض البعض لطريق الحاج ، وظهور (آل سبستكين) في خراسان بعد اضمحلال (آل سامان) ، وحنق العامة على تولي الشيعة زمام الحكم في العالم الإسلامي ، حتى تم نفي الشيخ (المفيد) عن بغداد .

فيما كانت الظواهر الطبيعية ملفتة أيضاً ، لا سيما في العراق ، من ظهور وانقضاض كواكب كبيرة وسماع دوي لها ومشاهدة ضياء عارم ، وفيضانات بالعراق ، وسقوط بَرَد عملاق خرّب المزارع والبساتين ، وحدوث أمراض ووباء في البصرة .

والرسالة الاولى أوضحت ما للشيخ (المفيد) من مكانة سامقة في مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وبيّنت دور الإمام الحجة عليه السلام في رعاية شيعته وحفظ نظامهم ، ولولا تلك الرعاية لاصطلمهم الأعداء ، بسبب ابتعاد الشيعة المتأخرين عن العمل الصالح الذي كان عليه الشيعة الأولون ، محذراً فيها من فتن سياسية قادمة ، يطلب الإمام فيها من شيعته المعونة على انتياشهم من شرورها ، وآيات طبيعية معبّرة يطلب من شيعته منها الموعظة ، ويشير إلى حال العراق وما هو مقبل عليه من ضيق ثم فرج بهلاك ظالم ، ويتعهد بتأمين طريق الحاج على ما يرضى به الناس ، ويحث على العمل المقرّب لمحبة أهل البيت عليهم السلام والابتعاد عن العمل المسخط لهم ، فأمر الإمام الحجة عليه السلام مفاجئ يأتي بغتة ولا تتسنى معه التوبة .

ورسالة الإمام عليه السلام تضمنت بيان حصول الاذن بمكاتبة الشيخ (المفيد) ، وليس معلوماً إن كان هذا الاذن بوحي أو الهام من الله له عليه السلام ، أو أنه بمقتضى قواعد الإسلام التي يعلمها الإمام التي توجب المراسلة في وقت أو زمان أو لشخص محدد ، وبالتالي ربما يستحق غير الشيخ (المفيد) الكرامة والشرف بمثل هذه المراسلة لو انسجم أمره مع القواعد الإسلامية الخاصة بتكليف الإمام عليه السلام .

وكذلك أشار عليه السلام إلى أن العزة إنما تكون بطاعة الله ، لا بالتوجه إلى المعاصي ، التي توجب الذلة المعنوية الناشئة عن فراغ يسده الإنسان بالانحراف . والعزة بالخضوع لطاعة الله تكون منطقية إذ الكون كله خاضع لطاعته عز وجل ، وبالتالي يكون الإنسان حينئذ جزءاً من منظومة كلية منسجمة . وهو ما هنأ به السلف الصالح بمقدار التزامهم تلك الطاعة ، والتي نأى عنها الخلف للأسف .

والإمام عليه السلام وإن كان مستغرقاً في غيبته التي أمر بها المولى عز وجل ، لمصلحة دينية واجتماعية عليا ، لكنه يحيط بعلم أحوال شيعته ، سواء كان ذلك بالإلهام الإلهي لشخصية المهدي العالمية القائدة ، بما توجبه دقة قيادة العالم من ضرورة الإلهام ، أو بالاطلاع المباشر له عليه السلام انسجاماً مع أطروحة خفاء العنوان ، أو من خلال أصحابه الخاصين الذين لا يقلون عن ثلاثين في كل زمان . وبالتالي فوجود الإمام عليه السلام يعمل على حفظ شيعته من شرور الأعداء ، بعمله المباشر ، أو بدعائه ، أو بواسطة خاصته .

محذراً فيها شيعته من فتنة ، ربما تكون مذهبية ، يهلك فيها من اقترب أجله ، ويطلب منهم معاونته لمساعدتهم في الخروج منها آمنين ، وذلك بإتباعهم قواعد الإسلام . وقواعد الاسلام تقتضي العمل المكثف بالتقية حينها ، وعدم استفزاز المخالفين ، والنقد الهادئ الصحيح . وبالتالي الإمام عليه السلام لا يرضى من شيعته الدخول في هذا المعترك الخاسر ، بل يتعهد بنجاة من عمل بتوجيهاته فقط .

وهذه الفتن إمارة وإشارة لنزول الإمام عليه السلام من عزلته للعيش بين المجتمعات ، بعد مرور ما يقارب الثمانين سنة على انتهاء الغيبة الصغرى ، وهو زمان كاف جداً لئلا يعرفه أحد ، أو أنه عليه السلام أراد أن بدء الفتن الكبرى التي تمس شيعته في صميم حياتهم وتستمر إلى عصر ظهوره قد بدأ منذ ذلك الحين .

ومن جمادى الأولى في العام ٤١٠ هجري حذّر الإمام شيعته ونبههم إلى بدء سلسلة آيات ، ربما تكون طبيعية ، أو غير ذلك . ومن ذلك ما حدث في النصف من جمادى الأولى في ذات العام من فيضان (البحر المالح) ووصوله إلى البصرة ، وهذه ربما بداية السلسلة ، التي شهدت في العام ٤١٧ هجري سقوط النيازك الكبيرة بأصواتها وضيائها .

فيما تحدث في المشرق من الأحداث ما يحزن ويقلق . وقد كانت إذ ذاك الحروب الداخلية للدولة البويهية في إيران ، أي شرق العراق ، ثم سيطرة السلاجقة عليها ، وكذلك الحروب في (همدان) للفترة ٤١٠-٤١٤ هجرية . وكل الحروب الظالمة محزنة لا شك .

ثم تخبر الرسالة بسيطرة طوائف مارقة عن الإسلام على العراق ، تضيق الأرزاق بوجودهم ، ويتفشى الغلاء والوباء بسببهم ، حتى يهلك " طاغوت ظالم " يفرح بموته المتقون الاخيار . وتلك الصفات – كما يرى السيد الشهيد الصدر قدس سره – تنطبق على السلاجقة وزعيمهم (طغرل بك) ، الذي ما إن انتهى من الدولة البويهية حتى دخل بغداد في العام ٤٤٧ من الهجرة ، أي بعد تاريخ الرسالة الأولى بسبع وثلاثين سنة فقط ، فسكن جنوده في بيوت الناس ، وسلبوا أرزاقهم ، وأحدثوا الفوضى العامة والخاصة ، لا سيما أن أذن لهم الخليفة العباسي ، الذي كالوا له الهدايا والخدم من الأتراك ، فكان (طغرل بك) ظلوماً جهولاً غاشما ، لم تشهد بغداد غلاء ولا وباء يشابه ما حدث في زمانه ، حتى لم يجد الناس ما يشترون ولو باغلى الأسعار ، حتى أكلوا الكلاب والجيف ، وحتى دفنوا الموتى في حفر جماعية . لكن كل ذلك بدأ في التراجع بهلاك (طغرل بك) نفسه في العام ٤٥٥ هجرية ، لذلك فرح المؤمنون بهلاكه .

فيما تعهد الإمام في رسالته بتيسير طريق الحج إلى مكة المكرمة ، حيث ينقل السيد الشهيد الصدر قدس سره أن سبيل الحاج العراقي تيسر منذ العام ٤١٩ هجري ، أي بعد الرسالة بعشرة سنوات ، ولا يبعد دور الإمام عليه السلام فيه .

ودعا عليه السلام شيعته للعمل بما يقربه من طاعة وحب المهدي عليه السلام ، الذي هو طاعة وحب لله حسب القواعد الإسلامية ، ولا يظل احدهم على الانحراف دون توبة ، وعلة ذلك أن الظهور دائم الاحتمال ، وبالتالي نصرة الإمام الحق محتملة دائما ، وعقوبته محتملة في كل وقت .

أما الرسالة الثانية فقد كتبت في العام ٤١٢ هجرية ، وابتدأت مع حمد الله والصلاة على رسول الله واله عليهم السلام بذكر الوصف الكريم للشيخ (المفيد) من أنه ناصر للحق بكلمة الصدق ، وهذه من أهم ميزات الشيخ (المفيد) وميزات أهل العلم لا أهل المراء والجدل العقيم .

ثم أوضح الإمام عليه السلام أنه انتقل من سكنه السابق إلى منزل على قمة جبل يصعب الوصول إليه ، بسبب أن مسكنه السابق خلى من أهل الإيمان ، أو خلى من الزرع . وأنه عليه السلام سينتقل قريباً إلى منزل آخر في ارض مستوية ذات زرع ربما .

وتضمنت الرسالة أن الإمام عليه السلام مطلع أو أراد مناجاة الشيخ (المفيد) قدس سره من منزله ذلك . والإمام عليه السلام بيّن أنه يستمر بمراسلة هذا الشيخ الجليل ، بما يستجد ، ليعرف من خلال تلك الرسائل ما يقرب إلى الإمام من الأعمال . ومن تلك الأعمال الصالحة على مر الأجيال محاربة الفتن التي تؤسس الأرض المناسبة لظهور الظالمين .

ومن علامات ظهوره عليه السلام فتن يؤسس لها الظالمون لقتل الشخصيات الصالحة ، مادياً أو معنويا ، لا يتحقق غرضها ببركة دعاء الإمام المهدي عليه السلام ، لذلك يجب على المؤمنين الاطمئنان . لكن عليهم أن يكونوا من أهل الصلاح والخير .

وبالتالي فصلاح النفس الفردية هو صلاح للمجتمع عموما ، ولا يتم ذلك إلا بالابتعاد عن المحرمات ، وبالسعي إلى أداء الواجبات الإسلامية ، والتي من أهمها " تأدية الحقوق المالية الشرعية " ، لأنها اشح في النفس واصعب على الإنسان ، وبالتالي هي انفع في تربية نفسه ، كما أن هذه الحقوق كفيلة بإيجاد التكافل الاجتماعي في المجتمع المؤمن للخروج من اي حصار اجتماعي واقتصادي يفرضه الظالمون .

ولو بلغت النفوس الفردية مبلغها من التقوى ، وبلغ المجتمع بعد ذلك الصلاح مبلغه من الإصلاح ، ووصل الأفراد والجماعات إلى درجة محترمة من المسؤولية ، لمنّ الله عليهم بلقاء إمامهم عليه السلام ، وبشّرهم بدولته العادلة . إذ الإمام عليه السلام لا يحتجب الا على أهل المعاصي أو قليلي المسؤولية والنضوج . فهو عليه

السلام وفقاً لهذه الرسالة خفي العنوان لا الشخص ، يزول حجاب غيبته عن عين الشخص الواعية بزوال ذنوب الشخص نفسه .

الروايات الإسلامية الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام تناولت ما يكون من البشرية عموماً وشيعتهم خصوصاً من علاقة بالدِين ، كما أوضحت الكثير من الحوادث التي ستكون في المستقبل ، لا سيما مما له علاقة بتاريخ الظهور الشريف للحجة عليه السلام .

إلا أن تلك الروايات الإسلامية ، أو التاريخية ، لم تخلو من نقاط ضعف ، في السند ، من حيث الرواة ومستوى وثاقتهم ، أو تدخّلهم في متن الرواية بفرض وجهات نظرهم ، أو حذفهم ما لا يفهمون ، أو النسيان ، أو الكذب بشأن المستقبل الذي لا يسع معاصريهم التأكد منه ، أو رواية ما حدث بعد حدوثه ، أو الاكتفاء بنقل حادثة دون أخرى ، ومن حيث المتن ، حيث قد يتم نقل الروايات بالمعنى ، رغم خصوصية الرموز الواردة فيها ، والتي تحتاج إلى تدقيق ومقارنة .

وقد يمكن التغلب على الكثير من تلك العقبات من خلال الجمع بين الروايات ، والمقارنة البحثية بينها ، وهي على كل حال بلغت حد المتواتر فيما يتعلق بحوادث المستقبل .

وكذلك يمكن التخلص من عقبات القبول بتلك الروايات من خلال الأخذ بالمضمون المستفيض المتواتر في معناه أو لفظه ، الأمر الذي يمنع تواطئ الكذب فيه ، حتى وإن كانت الروايات بمفردها ضعيفة نسبيا ، ورفض الروايات المنفردة المختلفة عن السياق العام حتى إذا طابقت القواعد من حيث وثاقة السند مثلا .

ومن حيث الرمزية في متون الروايات عن النبي أو الأئمة المعصومين عليهم السلام ، فاستخدامها ناشئ عن عدة ضرورات ، منها قانون " كلّم الناس على قدر عقولهم " ، والحاجة إلى بقاء الناس في مرحلة انتظار غير مفصّلة تساهم في تربيتهم وتجعلهم يتوقعون ظهور المهدي عليه السلام في كل حين ، والتحرز من استغلال الظالمين للتربح من تلك الروايات ، والاكتفاء بموارد العِبرة والموعظة فيما لا يحتاج إلى إشارة مباشرة من شرائط الساعة وغيرها ، وكذلك أن المعصومين عليهم السلام قد يتركون ما يتوقعون خضوعه للمحو والاثبات الإلهي من الحوادث .

والناس ، بسبب عدم تأملهم في رمزية الروايات ، على مسلكين ، مصدق بها ، حاملها على الإعجاز الذي لا داعي له ، ومكذب بها ، لم يستسغ ما جاء فيها .

ولو حملها طرف ثالث على الرمزية لوجدها بلا مشاكل واقعية . وسبب الغموض في الروايات ناشئ عن عدة جهات ، كالرمزية ، التي هي جمل مركبة يراد منها معنى غير الذي يعطيه ظاهرها ، أو استعمال مداليل خاصة تناسب عصر السامع الاول ، لكن يراد منها ما يناسب عصر حدوث الحادثة في المستقبل ، كالسيف ، أو الحذف بعدم تعرّض المعصومون عليهم السلام لأسماء أو أيديولوجيات أو أزمان صريحة ، بل إلى مفاهيم عامة ، مثل السفياني والنفس الزكية .

ومما يزيد غموض الروايات وصعوبة الأخذ ببعضها ، احتمالية الحذف منها ، بما يغيّر المعنى ، وأن كثرتها كما تدعو إلى القبول باستفاضة بعضها توجب طرح بعضها الآخر ، وأن عدم القدرة على تمييز ما هو مناسب لقانون المعجزات من غيره يزيد كذلك من صعوبة التمييز بين المقبول وغير المقبول . وكل هذه مناشئ نفسية .

ويمكن رفع الغموض عن الروايات من خلال رفع أسبابه ومناشئه ، عبر التشدد السندي ، والاحتكام إلى القرائن الأخرى المثبتة للحادثة التي تتحدث عنها الرواية ، وكذلك قبول ما فيها من معجزات إذا وافقت التشدد السندي ، مع إيجاد فهم جديد لهذا الإعجاز ، واعتبار الرواية رمزية إذا وافقت القواعد الإسلامية لكنها ذات نص لا يمكن الأخذ بظاهره ، وذلك بحمل معاني ألفاظها على اقرب معنى ثانوي يوافق باقي القرائن والقواعد ، مع مراعاة تطور استخدام المصطلحات الواردة في الروايات مع الزمن .

وتنقسم روايات المستقبل الإسلامية إلى عدة أقسام ، من حيث الزمان ، حيث تتحدث عن ماضينا بحوادث انقضت كقيام دولة بني أمية ، وحاضرنا كانحراف الناس عموما ، ومستقبلنا كظهور السفياني والخسف ، أو من حيث الرواة ، حيث روى أعم وأغلب الروايات المستقبلية أهل العامة تحت عنوان الملاحم والفتن ، وإن كان أغلبها لم يتم ربطه بالمهدي مباشرة ، وروى الأقل منها رواة الشيعة مما هو له علاقة مباشرة بظهور المهدي عليه السلام .

ومما لم يطرحه السيد الشهيد الصدر قدس سره أنه لعل الله عز وجل أراد لأهل العامة هذا الكم الكبير من روايات الملاحم والفتن ، لا سيما ما يرتبط منها بغنى الاعور الدجال ، لما يتعرض له غير الشيعة من اغراء خط الاعور الدجال بصورة واضحة وجلية ، وهم بلا دروع معرفية واقية كما تتوفر تلك الدروع المعرفية للخاصة من الشيعة بوجود الأئمة المعصومين عليهم السلام والمراجع الكرام .

أو تنقسم الروايات هذه من حيث اشارتها إلى سوء الزمان ، الذي يكون غالباً في فترة الغيبة الكبرى ، أو تحقق نخبة واعية مخلصة خلالها ، أو حسن الزمان الذي يكون غالباً بعد الظهور الميمون للمهدي عليه السلام .

ونحن مع روايات المستقبل الإسلامية ، ما تعلق منها بالمهدي عليه السلام خصوصا ، أمام اطروحتين . في الاولى يمكننا الإقرار بالجهل أمام الفلسفة الإلهية في ترتيب وربط الحوادث الواردة فيها ، وكذلك الاعتراف بتأثير الحس المادي على مشاعرنا بعد الابتعاد عن الاسلام الاصيل بنحو كبير ، لذلك يمكننا فقط التسليم بكل لفظ – طبيعي او اعجازي – ورد فيها ، بكل بساطة وثقة ، لأن المعجزات هنا يتوقف عليها ظهور المهدي عليه السلام .

أما الأطروحة الثانية فتقتضي الاحتكام إلى أهم مصادر الاستدلال الشرعي في الاسلام ، العقل والقرآن والسنة ، وبالتالي القواعد الإسلامية الصحيحة المتفق عليها ، وما خرج من الروايات عن هذا السياق يفقد شرعيته وحجته ، أو لا اقل من حمله على الكناية والرمز ، لأن الله عز وجل أبان لنا الكثير من أسباب الحوادث وشيئاً من ترابط توجهاتها لإيجاد "شرائط الظهور" التي توفر الأجواء الخاصة لتربية مجتمع صالح لاستقبال الإمام عليه السلام ، التي تختلف بطبيعة الحال عن "علامات الظهور" التي هي مؤشرات تنبيهية على اقترابه . وبالتالي يمكننا حتى تفسير وقوع المعجزات من قبل المنحرفين ، إذا كانت تثبت فشلهم أمام المجتمع ، فهي أيضاً في سياق بيان حجة الله على الخلق .

مناشئ التخطيط الإلهي العام والخاص لهداية البشرية تقود إلى مناقشة اقتضاء الوصول بها إلى أعلى مراتب العبادة ، التي هي غاية الخلق كما يعبّر القران الكريم .

فالله جل وعلا غني عن خلقه ، ولم يخلقهم إلا لكمالهم متفضلاً . واذا استندنا إلى آية تمكين المؤمنين في الأرض وتحقيق الأمن لهم ، وكذلك آية إظهار دين الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على باقي الأديان والعقائد لدى البشرية ، لنعضد ما اقتضته آية الغاية من الخلق ، فإننا نجزم قطعاً أن الله عز وجل محقق وعده وفاعله . والعبادة ، التي هي الكمال حتى الوصول الى الله تعالى انسجاماً مع الكون كله ، تكون على مستوى الفرد والمجتمع والدولة ، ولا يمكن تحققها بلا اجتماع الثلاثة . ولما لم يشهد التاريخ – كما نعرف بالوجدان والأخبار – قيام هذه الدولة الشاملة من قبل فهي لا شك ستقوم في مستقبل البشرية بإذن الله ، بالأسباب الطبيعية ، أو بخرق القوانين الطبيعية إذا اقتضت ضرورة قصوى ذلك .

وكمال البشر لا يتحقق إلا بعاملين خارجي وداخلي ، أو موضوعي وذاتي . فالخارجي هم الانبياء الذين يبينون للإنسان الشريعة المؤدية إلى التكامل ، والذين يسيرون بعددهم ونوعهم بمسيرة البشرية تصاعدياً . والعامل الداخلي الذاتي هو شعور الإنسان الفرد بالمسؤولية لتطبيق ما يختاره الله العالِم العادل المطلق ، والذي أخبره به الانبياء بعد إثبات نبواتهم بالمعجزات ، لاقتناعه بوجوب طاعة الله المطلقة ، أو طمعاً في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها ، أو لإيمانه بأن الله لن يحقق الا العدل المطلق في الدنيا ، وهذه النقطة الأخيرة لابد لها من استدلالات فلسفية لكي تتم .

والشعور الفردي ، ثم الاجتماعي ، بالمسؤولية لما لا يكون منحصراً بطريق المعجزة ، والتي عادة لا تنتج شعوراً اختيارياً حراً حقيقياً ، يجعله الله عن طريق آخر هو الطريق الطبيعي القائم على الأسباب مهما طال الزمان . فطول الفترة الزمنية يدخل الإنسان في مزيد من التمحيص والاختبار ، التي تجعله يعرف قيمة النموذج العادل ، لا سيما إذا كان قد رأى أو عرف تطبيقاً مسبقاً له ، وكذلك يكون مستعداً للتضحية من أجله ، بل يشعر باللذة والفخر وهو يدافع عنه ، لأنه صار جزءاً من ذاته . وتكفي الجماعة المؤمنة المخلصة العارفة بأطروحة العدل الإلهية منطلقاً لقيادة المجتمع البشري نحوها ، مع ارتباطها بمجموعات أوسع ، لكنها أقل منها اخلاصا

. ليكون حال البشرية في لحظة من لحظات المستقبل – كما في الروايات – مقسوماً بين فسطاطين ، أو معسكرين ، إيمان لا كفر فيه ، وكفر لا إيمان فيه .

والتمحيص الإلهي العام للبشرية يتمخض مستقبلاً قبيل الظهور الموعود عن أربعة درجات من الإخلاص ، يمكنها جميعاً المشاركة مع المهدي عليه السلام في تطبيق الأطروحة الإلهية العادلة ، شعوراً منها بالمسؤولية أو بأهمية تلك الأطروحة ، بعد يأسها خلال التجربة البشرية من باقي الأطروحات . فهناك الاعلى رتبة والأقل عدداً وهم ذوو الاخلاص التام والوعي الكامل ، وهم قادة العالم حينها ، والذين لا يحتجب عنهم المهدي عليه السلام ، وذوو الإخلاص الثابت المهم ، لكنهم ربما لا يتسنى لهم عبور التمحيص الذي عبرته المجموعة التي قبلهم ، لكنهم من قواعد تطبيق الأطروحة الإلهية العادلة لا شك ، وذوو الإخلاص الاقتضائي ، الذين يحبون العدل الالهي ويعرفونه لكنهم يسايرون الظلم طمعاً أو خوفا ، وذوو الاحساس الخفي بضرورة وجود أطروحة عادلة ، بعد يأسهم من أطروحات التجربة البشرية الوضعية ، وهؤلاء لا يشعرون بالإخلاص مطلقاً تجاه الأطروحة الإلهية العادلة ، لكنهم حين يعرفونها يجدون من الضروري القبول بها بديلاً عن باقي الأطروحات الفاشلة ، وهؤلاء هم الاعم الأغلب من الناس حينها .

إن **التخطيط الإلهي السابق** على الإسلام كان يسير مع البشرية بالتدريج ، من حيث قدرتها على الاستيعاب ، ومن حيث تربيتها على الإخلاص . وقد شارك الأنبياء الكرام عليهم السلام فيه ، رغم كون اليوم الموعود في نظر الأنبياء السابقين بعيداً نسبيا ، إذ لم يكن البشر قادرين على استيعاب وفهم الشرط الأول لإقامة دولة العدل الإلهي ، وهي الأطروحة العادلة الكاملة ، لذلك كانت النبوات قبل موسى بن عمران عليه السلام بلا شرائع تفصيلية ، ولم يكن همها إلا تثبيت المعرفة الإلهية في الجملة . ثم بعد بلوغها مرحلة من الوعي الجزئي – بعد مساعي خليل الله إبراهيم عليه السلام – صار من المناسب طرح بعض الشرائع السماوية التفصيلية ذات البعد التربوي ، مثل شريعة موسى التوراتية وشريعة عيسى الإنجيلية ، ممهدة للأطروحة العادلة الكاملة المتمثلة بالشريعة الإسلامية المحمدية .

بل كانت بعض الانبياء ، أو اصحابهم ومعاونيهم ، أو أممهم ، في مستوى أقل من المستوى المطلوب لإقامة دولة العدل الإلهي ، مثل آدم عليه السلام في عزمه الضعيف ، وحواريي عيسى عليه السلام في اطمئنانهم النفسي المشكك ، وأمة نوح عليه السلام التي لم تستجب لدعوته لما يقارب الألف سنة حتى دعا عليهم ، او أمة ابراهيم عليه السلام التي وقفت تتفرج عليه وهو يُلقى في النار بلا معترض واحد منهم ، او أمة موسى عليه السلام التي عبدت العجل بمجرد أن فارقها شخصه .

لكنّ الأنبياء عليهم السلام أشاروا في الجملة إلى هذا اليوم ، والى صاحبه ، رغم اختلاف اللغات والأزمان ، ولهذا اتفقت البشرية على حتمية حدوثه ، وإن اختلفت في تفاصيله .

ونحن كمسلمين نجزم بأن شرائع الأنبياء السابقين لم تكن هي الأطروحة العادلة الكاملة ، لأنها نُسخت ، ولو كانت كاملة للزم بقاءها . فضلاً عن أن تلك الشرائع – بالنسخ التي بين يدي البشر اليوم – ليست شاملة لكل نواحي الحياة ، بل تترك الكثير للحكم الوضعي . بل إنها – بنسخها المشهورة – إقليمية الطابع لا عالمية ، كما في توراة بني إسرائيل ، هذا على فرض القبول بما وصل منها .

لكن ما لم يذكره السيد الشهيد الصدر قدس سره وتناولناه في بحث مخطوط كون هذا التخطيط الإلهي السابق على الاسلام أنتج في النهاية مجتمعات على درجة عالية من الإخلاص ، وعلى استعداد كبير للتضحية ، بصورة طوعية ، وسعي لفهم الأطروحة الإلهية العادلة ، مثل مجتمع الأوس والخزرج في يثرب ، والمجتمع

المسيحي العربي والنبطي في العراق ، الذين آمنوا طوعاً واختياراً بالرسالة النبوية المحمدية ، وكانوا السبب في انتشارها عالميا . إلا أن المجتمع الاكثر اخلاصاً حينها ، وهو مجتمع الأنصار الأوس والخزرج في المدينة المنورة يثرب انقسم على نفسه ووقف عاجزاً عن نصرة إمام الحق علي بن أبي طالب في أول اختبار أكثر دقة وعمقاً في سقيفة بني ساعدة .

لقد **جاء الإسلام بشريعة عادلة كاملة** ، بدليل أنها اخر الديانات السماوية ، ونبيّه خاتم الأنبياء ، وإلا وجب على الله عز وجل إنزال رسالته الأشمل على غيره من بعده لو لم يكن كذلك . هذا من زاوية إسلامية ، أما من زوايا غيره فيمكن إثبات خاتمية وشمول وعدالة الإسلام في بحث العقائد الإسلامية.

والدولة النظامية التي جاء بها الإسلام لم تكن مستساغة في أزمنة الأنظمة القبلية والقومية القديمة .

كما أن البشرية خضعت لتربية الأنبياء عليهم السلام على مستوى الشرط الأول من شروط قيام دولة العدل الإلهي ، المتمثل بالوعي الفكري بالأطروحة العادلة ، لكنها لم تصل إلى المستوى المناسب على مستوى الشرط الثاني ، المتمثل بالإخلاص والتضحية التامّين.

وكذلك كان لابد أن تتربى البشرية على الإخلاص والتضحية ، وعلى وجود الأطروحة الإلهية العادلة ذاتها خلال فترة مناسبة تكفّل بها الإسلام . أي أن الأنبياء السابقين والإسلام عملوا معاً على تنمية الفكر البشري ، لكنّ الإسلام وحده من تكفّل بتربية وجدانها بصورة واضحة وممنهجة.

وكانت الظروف الطارئة والصعبة ، من انقطاع الوحي الإلهي برحيل نبي الإسلام ، وانقطاع التطبيق الناجح للأطروحة العادلة ، بغياب شخص النبي الكريم أو الخلافة الاولى ، وخضوع الحكم الإسلامي لسلطنة الكثير من المنحرفين ، وضعف الوازع الديني والأخلاقي للأفراد حينها ، مؤدية إلى ضرورة اعتماد المؤمنين على تنمية إرادتهم الذاتية ومستوى اخلاصهم للبقاء في الخط الإلهي العام . وهذه الإرادة لا يمكن صناعتها الا بالتمحيص المستمر .

والبشرية ، بعد غيبة المهدي عليه السلام ووجود التيارات المرتدة أو المعادية للإسلام من تبشيرية ومادية غربية ووضعية كالشيوعية والعلمانية وغيرها ، كانت القلة القليلة منها هي القادرة على الوصول إلى مستوى الإخلاص الكامل ، لكن مع وجود مخلصين بمستويات أخرى متعددة .

ويرى السيد الشهيد الصدر قدس سره أن الله عز وجل قد حرّم الظلم تشريعاً ، ومنع من القهر عليه تكويناً ، لكنه لم يمنع وجوده في الكون حتى لا يسلب فرصة الاختيار ، وليوفّر فرصة التربية الحقيقية للأفراد والمجتمعات .

ولقد شارك نبي الإسلام وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام وصحابته في مشروع تربية البشرية وتهيئتها لدولة العدل الإلهي ، من خلال بيان ضرورة وجود هذه الدولة ، وتوجيه الناس نحو قائدها المهدي عليه السلام ، حتى لا يدّعي مقامه أحد ، كما أشاروا إلى وجود الظلم وتكليف الفرد المسلم أثناء وجوده .

والمهدي عليه السلام يشارك في كل هذا التمهيد بنفسه ، حيث يلقي الحجج المستمرة على وجوده الشريف ، ويوجّه الأذهان إلى الأطروحة العادلة الكاملة ، ويقف ليزيل الظلم بما استطاع من وسائل .

البشرية تختلف بين أفرادها في الأفكار والتدابير ، ولا يمكن إدارة دولة صغيرة برؤى متفرقة ، لذلك لابد للأمم ذات الرؤى والمصالح المختلفة من قادة يوجهون مصالحها بما يحفظ كيانها ، أو على الأقل قائد واحد يكون مؤهلاً من جميع الجهات . أما بالنسبة لدولة عالمية واحدة فلابد من قائد بمستوى المهدي عليه السلام.

ويعطي الله تعالى لكل مكلف بمهمة إصلاحية إلهية قابلية تنفيذها ، لذلك كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام مؤهلين للقيادة العالمية ، بسبب سعة تكليفهم ، ومنهم المهدي عليه السلام (محمد بن الحسن العسكري) .

وحياة المهدي عليه السلام ضرورية فلسفياً وعملياً رغم غيبته ، إذ هو في تكامل مستمر لمرحلة ما بعد العصمة .

إن عصر الغيبة يساهم في عدة أمور إيجابية ، مثل تكامل ما بعد العصمة للمهدي القائد عليه السلام ، ومساهمته في حل مشاكل الأمة ، وكذلك مساهمة الحوادث في إيجاد شرط الظهور التربوي ، والشعور بوجود القائد الذي يرفع المعنويات ، وتعمّق مرحلة الغيبة الفكر الإسلامي ، بل العلوم البشرية اللازمة لتقدم الإنسانية بعد قيام دولة المهدي عليه السلام. فالأطروحة الإسلامية الأولى كانت كاملة في مستوى أولي كافٍ لتحريك الفكر الإنساني نحو تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة في دولة المهدي عليه السلام.

لقد **اتفقت الروايات الشريفة المنقولة في كتب العامة** ، بما فيها (الصحيحان) – وإن لم يخرجاه بالنص – و(السنن) ، وكتب الخاصة جميعها ، على أن الأرض قبل قيام المهدي عليه السلام يملؤها الظلم والجور ، الذي هو الميل عن شريعة الإسلام . وهذا ما نراه عياناً في عصرنا الراهن . حتى يظهر المهدي الموعود ويبدّله قسطاً وعدلا ، كما اتفقت مرويات الفريقين .

كما اتفقت هذه الكتب على حدوث الفتن ، وسعتها ، وانتشارها المهول الذي يصل كل بيت . والفتنة يُقصد بها عدة معان ، كالامتحان والتمحيص ، والكفر والضلال ، واختلاف الآراء ، والقتل ، على حسب ما وردت فيه من الرواية . أو أنها بمعنى واحد ، يخرج الفاشل من التمحيص إلى الضلال واختلاف الآراء ثم القتل .

ونقلت أيضاً حدوث الجزع وتمني الموت من قبل المؤمنين ، أو الناس عامة ، لما يرونه من سوء الزمان وجور الناس على بعضهم . وهو الحال الذي ازداد مؤخراً بعد رحب السيد الشهيد الصدر قدس سره ، كما توقعه ، حتى بلغت معدلات الانتحار أرقاماً كبيرة وخطيرة . فيما أن أسوأ مخاوف جور الإنسان على الإنسان أن تصل البشرية إلى مرحلة التطاحن بالأسلحة الفتاكة في حروب لا منتصر فيها سوى الموت والخراب . لكن تنتج هذه المرحلة – على مستوى التخطيط الإلهي – يأس الناس من الأطروحات الوضعية ، والبحث عن الأطروحة العادلة الكاملة.

كما أشارت إلى وقوع الحيرة والبلبلة ، في عقائد الناس ، من حيث انتشار التيارات الضالة ، أو من حيث حيرة المؤمنين الخائفين في كيفية النجاة بعقيدتهم ، أو في طول غيبة المهدي عليه السلام وشك بعضهم في أمر ظهوره ، أو تكليف المسلمين بغياب قائدهم وانقطاع الاتصال به عليه السلام.

وقد استقل رواة العامة في نقل اخبار انتشار الهرج ، وهو القتل في اضطرابات أشبه بحرب الشوارع والعصابات ، وأن التمسك بالصلاة والدين فيه له أجر عظيم . وجعلوها من علامات الساعة ، وهي كذلك تصلح أن تكون من علامات قيام المهدي عليه السلام لأنهما يقعان معاً في طريق قيام ذلك اليوم .

ونقلت بعض الأخبار انتشار الجهل بين الناس ، ورفع الله عز وجل للعلم ، بموت العلماء ، أو بمنع الظالمين للعلماء من تبليغ شرع الله. وما لم يعاصره الشهيد الصدر قدس سره هذه الظاهرة التي نعيشها من اتساع دائرة تدني المستوى الفكري والعقلي ، وتسلط أهل الجهل والسطحية والتفاهة على المقدرات السياسية والإعلامية والاقتصادية ، ثم الدينية .

وكذلك نقلت اخبار الاختلاف وتشتت الآراء وانتشار علماء السوء المضلين الآخذين بأيدي الناس إلى أبواب جهنم. وعلماء السوء وفرق الآراء الضالة كانت موجودة على طول الخط منذ زمن الخلافة ، بوجود علماء السلطان ، أو ظهور الفرق المنحرفة البعيدة عن الإسلام كالقرامطة والبهائية والقاديانية ، كما يعبّر الشهيد الصدر قدس سره.

لقد ذكرت العديد من روايات الإمامية اختلاف الناس في المهدي عليه السلام ، بسبب طول غيبته ، ليشابه حاله حال عيسى النبي عليه السلام ، حتى يقول قائلهم : مات أو هلك في أي واد سلك . وقد انفرد الإمامية بهذا النقل لاتفاق مجمل أهل العامة على أنه يولد في آخر الزمان .

وكانت جملة الأقوال في شأن حياة المهدي عليه السلام أربعة . أولها أنه لم يولد من الأصل ، وأن الإمام الحسن العسكري عليه السلام مات ولم يعقب ، وهو مذهب الدولة العباسية التي أورثت تركته ل(جعفر الكذاب) ، وكذلك موقف مجمل أهل العامة .

والثاني أنه ولد ومات ، ويقول به من متأخري العامة (محمد بن احمد السفاريني الأثري) المولود ١١١٤هجري ، وهو خلاف رأي الإمامية القائلين بولادته وغيبته الكبرى ، وخلاف رأي متقدمي العامة مثل الطبري وابن الأثير الذين يرون أنه ولد واختفى في السرداب ، وكذلك يشبه من زاوية ما قول أتباع مدعي المهدوية في كل زمان ، حين يموت مهديهم المزعوم ثم يموت رأيهم بموتهم . والقول الثالث هو أنه قُتل أو صلب ، وهو قول أتباع بعض مدعي المهدوية أيضا . وربما هناك من يقول مع مرور الزمان بقول الرابع أن الإمام هلك في أحد الوديان والبراري.

وأشارت الروايات الشريفة عند مختلف الفرق إلى أن **الحكم بعد رحيل رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم – وقبل ظهور المهدي عليه السلام – يكون ملكاً عضوضاً أو منحرفاً فاسدا . وقد تحقق ذلك كله ، سواء كان الحاكم جاء إلى السلطة بسبب ديني ثم حكم بالهوى مثل الأمويين والعباسيين والعثمانيين ، أو كان الحاكم بظاهره مسلم لكنه يحكم بالقوانين الوضعية المستوردة من بلاد الكفر كما في أغلب الأنظمة المعاصرة في بلاد المسلمين ، أو كان كافراً صراحة في شخصه وقوانينه مثل الحاكمين الأجانب المحتلين للبلدان الإسلامية على فترات متقطعة . وكل أولئك كانوا حكاماً فجرة ووزراؤهم ظلمة وأتباعهم فاسدون . يأتي كل حاكم ضمن السياق الطبيعي لكل مجتمع فاسد بعيد عن تعاليم الإسلام ، وقد تربى على اعتياد الظلم والفته. فضلاً عن الحكم الكافر المحض والمادي الذي يتسافل أخلاقياً واقتصادياً كل يوم في البلاد غير الإسلامية.

تشير الروايات الإسلامية عند الطائفتين إلى وجود **التمحيص الإلهي المستمر** ، للبشر عامة ، وللمؤمنين بقضية المهدي عليه السلام خاصة ، لغربلتهم ، وتنقية مجتمع كما ينقى الاكل من السوس شيئاً فشيئاً حتى يبقى منه الاندر الذي لا يضره السوس ، وهم القلة القليلة الباقية ، بعد انحياز الاكثر إلى طريق الانحراف . فالإنسان بطبيعته متغير في مواقفه تجاه الحوادث ، أو في أفكاره تجاهها ، ولا يبان موقفه العملي منها حتى تحدث ، فيكون حدوثها سبباً لتحديد موقفه العملي منها ، الذي يخالف ربما فيه ما كان له من موقف نظري ، وبالتالي قد يتحول الإنسان السلبي إلى إيجابي ، والإنسان الإيجابي إلى سلبي .

على مستوى **الروايات الإسلامية الواصفة لحوادث وظواهر سلبية** داخل المجتمع المسلم أو خارجه فهي قد كانت متنبئة بما حدث ويحدث وقعا ، لا سيما في أمر تحكم افكار الشرق الالحادية وأفكار الغرب المادية بمسار السلطة في البلدان الإسلامية في العصور المتأخرة. بل إننا لا نحتاج إلى قراءة خاصة أو نقل قراءة السيد الشهيد الصدر قدس سره ربما إذا نقلنا إحدى تلك الروايات كما هي ، ليكون وجدان القارئ وحده مسؤولاً عن تشخيص وقوعها من عدمه ، ومعرفة صدق نبوءة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كانت الروايات الأخرى تضمنت تفاصيل اخرى ايضا ، بعضها تدعمها القرائن التاريخية أو التعاضد في مجموع الأخبار ، وبعضها انفرد بنصوص خاصة .

عن عبد الله بن عباس قال: حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع فأخذ باب الكعبة ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ – وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رضي الله عنه – فقال: بلى يا رسول الله .

فقال: إن من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان إن عندها امراء جورة، ووزراء فسقة، وعرفاء ظلمة، وامناء خونة.

فقال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان إن عندها يكون المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وائتمن الخائن ويخون الأمين، ويصدق الكاذب، ويكذب الصادق.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان فعندها إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب طرفا، والزكاة مغرما، والفيء مغنما، ويجفو الرجل والديه، و يبر صديقه، ويطلع الكوكب المذنب.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده. يا سلمان وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة، ويكون المطر قيظا، و يغيظ الكرام غيظا، ويحتقر الرجل المعسر، فعندها يقارب الأسواق إذا قال هذا: لم أبع شيئا ، وقال هذا: لم أربح شيئا فلا ترى إلا ذاما لله.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان فعندها يليهم أقوام إن تكلموا قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم ليستأثروا بفيئهم ، وليطؤون حرمتهم، وليسفكن دماءهم، ولتملأن قلوبهم رعبا، فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: إن عندها يؤتى بشئ من المشرق وشئ من المغرب يلون أمتي ، فالويل لضعفاء أمتي منهم، والويل لهم من الله، لا يرحمون صغيرا، ولا يوقرون كبيرا ولا يتجاوزون عن مسئ، أخبارهم خناء، جثتهم جثة الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها تكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، ويشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، ويركبن ذوات الفروج السروج فعليهن من أمتي لعنة الله.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس، و يحلى المصاحف، وتطول المنارات، وتكثر الصفوف بقلوب متباغضة وألسن مختلفة.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. وعندها تحلى ذكور أمتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج، ويتخذون جلود النمور صفافا.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان وعندها يظهر الربا، ويتعاملون بالغيبة والرشاء، ويوضع الدين، و ترفع الدنيا.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان وعندها يكثر الطلاق، فلا يقام لله حد، ولن يضر الله شيئا.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان وعندها تظهر القينات والمعازف، ويليهم أشرار أمتي.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان وعندها تحج أغنياء أمتي للنزهة، وتحج أوساطها للتجارة، وتحج فقراؤهم للرياء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله، ويتخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقهون لغير الله، ويكثر أولاد الزنا، ويتغنون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان ذاك إذا انتهكت المحارم، واكتسبت المآثم، وسلط الأشرار على الأخيار، ويفشو الكذب، وتظهر اللجاجة، ويفشو الحاجة، ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير أوان المطر، ويستحسنون الكوبة والمعازف، وينكرون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من الأمة ، ويظهر قراؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يدعون في ملكوت السماوات: الأرجاس والأنجاس.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان فعندها لا يخشى الغني إلا الفقر حتى أن السائل ليسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع في يده شيئا.

قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله، إي والذي نفسي بيده. يا سلمان عندها يتكلم الرويبضة.

فقال: وما الرويبضة يا رسول الله فداك أبي وأمي؟

قال صلى الله عليه وآله: يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى تخور الأرض خورة، فلا يظن كل قوم إلا أنها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء الله ثم ينكتون في مكثهم فتلقي لهم الأرض أفلاذ كبدها – قال: ذهب وفضة – ثم أومأ بيده إلى الأساطين فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة، فهذا معنى قوله: " فقد جاء أشراطها ".

إن **الروايات الإسلامية التي تتحدث عن صلاح للمجتمع قبل ظهور المهدي** عليه السلام قليلة جدا ، وهي مروية في بعض كتب العامة ، كالبخاري ، ولم يروها رواة الخاصة . وهي تتحدث عن كثرة المال في المجتمع ، حتى لا يجد المتصدق من يتصدق عليه .

وتكون متعارضة مع الروايات المستفيضة عن فساد المجتمعات كلما ابتعدت عن الإسلام .

وقد احتمل السيد الشهيد الصدر قدس سره أن يكون المقصود بهذا الغنى في المال وتطاول البنيان زمان المهدي عليه السلام الذي تكثر فيه الخيرات ، أو أنه يرى سقوطها جميعاً لتعارضها مع الروايات المستفيضة عن انتشار الفساد قبل ظهور المهدي .

لكن يمكننا تخريج ذلك بوجه آخر ، باعتبار أن الروايات جاءت في كتب العامة فقط ضمن تخطيط الهي ، لأنها تخاطب مجتمعاً أعرابياً محدداً في منطقة العالم الإسلامي ، حيث كانت معظم قبائله تعيش في البراري والقفار ، ولا تجد من المال شيئا ، ثم تحولت هذه المجتمعات فجأة إلى الغنى الفاحش لأسباب وظروف تاريخية معلومة ، لا علاقة لها بصلاح المجتمع ، بل هي مرتبطة بشؤون دنيوية بحتة .

التكاليف الإسلامية الفردية والاجتماعية في عصر الغيبة الكبرى عديدة ، يجب على المسلمين التزامها لتحقيق السير باتجاه دولة العدل الإلهي.

ومن هذه التكاليف الإيمان بالمهدي عليه السلام عموما ، بتجريد العنوان عن خصوصية الرؤية الإمامية. وذلك يحقق نتيجة مهمة تتمثل في إيجاد الشخص المنتظِر والمجتمع المنتظِر الإيجابي الحركي .

لأن المهدي عليه السلام الطريق الأوحد لإنجاز التطبيق الصحيح للنظرية الإسلامية في دولة العدل للبشرية ، ومن ثم الوصول إلى الغاية من الخلق المتمثلة بعبادة الله . ومنه نعرف أن الإيمان بالمهدي عليه السلام إيمان بالله ورسوله ، لأنه المسار الأصح لتطبيق ما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبخلاف ذلك لا تتحقق نتيجة إيجابية للبشرية ، في ظل تشتت الأفكار وتبعثر الفئات عند غياب القيادة المركزية ، كما هو حاصل تاريخ البشر وواقعهم .

الانتظار من أهم تكاليف الإنسان في عصر الغيبة الكبرى ، بل على الدوام ، لا سيما المسلم ، الذي يكون المهدي جزءاً من عقيدته لتطبيق الأطروحة الإلهية العادلة في أي وقت ، الإمامي الذي يرى أن المهدي قد ولد ، وغير الإمامي الذي قد يكون مهديه مولوداً في أي زمان وهو لا يعلم ، وغير المسلم الذي يتوارث دينه فكرة ظهور المخلّص الذي ينقذ الإنسانية والأرض من الظلم والجور .

ويكون الانتظار الإيجابي مشروطاً بأمور عقائدية ونفسية وسلوكية لدى كل فرد ، من حيث الاعتقاد بالأطروحة العادلة وقائدها ، ومن حيث الاستعداد لتطبيقها في كل وقت ، ومن حيث السعي في تفعيل تفاصيل شريعتها حتى قبل القيام العادل للإمام المهدي عليه السلام ، ليتسنى للفرد تحقيق رضاء الله والإمام والضمير والبشرية من خلال سلوكه الصالح الممهد لشمولية الصلاح .

ومن ثم لا يمكن القبول بفكرة كون الانتظار من المفاهيم السلبية التي تساعد الناس على التقاعس والاتكال ، وهي فكرة تترسخ في أذهان عدة فئات ، من ماديين يشككون في عموم الأطروحات الدينية ، وانانيين يقدمون مصالحهم الخاصة على العامة ، وجهلة يرتكزون إلى مبادئ دينية ناقصة ويرون ضرورة امتلاء الأرض بالظلم لتسريع الظهور ، ويائسين يشعرون بعدم جدوى العمل الإصلاحي في المجتمع المنحرف . فالانتظار يتضمن تكاليف إسلامية وإنسانية ضخمة توازي في بعض الأحيان ما يتطلبه العمل للظهور نفسه .

فالأحكام الإسلامية الاجتماعية والإصلاحية باقية ، فضلاً عن الأحكام الفردية التي لا يكفي – شرعاً – الامتثال لها وحدها . ولا يمكن للأمة أن تستطيع قيادة الإصلاح في العالم وهي لم تنجح في إصلاحها مجتمعها الصغير .

فكرة الانتظار قد مرت بأربعة مراحل في تاريخ البشرية . الأولى كانت قبل الإسلام ، حين أخبر الأنبياء السابقون اممهم بظهور مصلح عام عادل ، لكنه في زمن آت بعيد وليس زمان نبواتهم . والثانية كانت من بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغيبة الصغرى ، حيث كانت فكرة مهمة جداً ومبهمة في أذهان خاصة المسلمين فضلاً عن عامتهم ، وكان ائمة اهل البيت عليهم السلام يشرعون في توضيحها بالتدريج ، ويؤكدون أن زمانها لم يحن ، وأنها مشروطة بشرطي الفهم الكامل للأطروحة العادلة والإخلاص في تأسيسها . ثم فترة الغيبة الصغرى التي ظل الشيعة فيها يأملون ظهور إمامهم الحق عليه السلام تحقيقاً للعدل الإلهي ، وكان الإمام يذكي هذه الروح فيهم ، رغم عدم تحقق شرط التمحيص الكافي ، لتظل أرواحهم معلقة بأمل الظهور كل حين . والمرحلة الرابعة هي مرحلة الغيبة الكبرى ، والتي كان الناس من الجيل فيها ينتظرون ظهور إمامهم عليه السلام ، لكنه أوضح عليه السلام في عدة مناسبات الحاجة إلى طول الأمد في تمحيص الناس وفرز صالحهم من طالحهم ، فيما يعمل قانون "ترابط الأجيال" على نقل نتائج التمحيص السابق إلى المجتمع اللاحق الذي يضيف عليها درجة أخرى في نتائج التمحيص وهكذا ، فيكون المؤمنون – أمام اختبارات شهواتهم ومصالحهم الفردية وكذلك أمام تيارات الظلم والظالمين – على ثلاثة مستويات في اخلاصهم واستعدادهم ، ذوي المراتب العليا الثابتون حتى الظهور ، وذوو المواقف الجيدة لكنهم لم يحققوا اختبارات عليا ، وذوو المواقف الجيدة لكنها غير ثابتة . فتكون هذه المستويات كافية في تحقق شرط الإخلاص للظهور الشريف .

من تكاليف الفرد المسلم في عصر الغيبة الكبرى الالتزام بأحكام وعقائد الإسلام ، بما وردت عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم. وعند ظهور الشبهات والفتن يتمسك بما يعرف وينكر ما لا يعرف ، ويلتزم الخط الانقى إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم ائمة اهل البيت عليهم السلام ، وفي حال غيبة المهدي عليه السلام يلتزم بما ينقله الخاصة من أهل الاجتهاد والبحث العلمي عنهم ، ولا يلتفت إلى حديث عامة الناس ممن يميل مع كل ريح .

إن من **تكاليف الفرد المسلم والمجموعة المسلمة في زمان الغيبة الكبرى** الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذلك الجهاد الثقافي أو المسلح . متى ما وجبت شروط أحدهما ، ولم يكن في فعلهما مخالفة للقواعد الشرعية الإسلامية. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة فرعية ضرورية للحفاظ على المجتمع المسلم من الداخل ، تجب فقهياً حين يكون ممارسها عارفاً بالمعروف والمنكر محتملاً للتأثير في الآخرين آمناً من الضرر ، وهي أوسع زماناً من الجهاد ، فالجهاد – الذي جعله الله لخاصة أوليائه – أوسع مكاناً بسعة الحاجة إليه في أعتاب الأرض للحفاظ على بيضة الإسلامية أو المساعدة في نشر اصل عقيدته ، بينما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب داخل البلاد الإسلامية فقط .

ومن ثم تكون العزلة السلبية محرمة حين يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الجهاد واجباً ، وتكون واجبة حين يكونان محرمتين . وما ترك أحد هاتين الفريضتين – بعد تحقق شروطهما – إلا ذل .

ويرى السيد الشهيد الصدر قدس سره أن أصحاب المهدي عليه السلام ربما يكونون افضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنهم خضعوا للتمحيص المستمر بخلاف الأوائل الذين كانوا يجاهدون بتأثير وجود النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخضعوا لاختبارات مسبقة ، حتى إذا غاب النبي عن الناس ظل الجهاد بفعل الوهج العاطفي لحضوره المبارك مستمراً لقرنين ثم اختفى ، فخضعت الأمة للاحتلال.

ويكون الجهاد في الإسلام مشروطاً بموافقة ولي الأمر ليحقق أغراضه ، ويكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محرماً إذا استلزم القاء النفس في التهلكة دون عائد ، فيما تكون العزلة السلبية أحياناً جزءاً من برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الجهاد إذا كانت مدروسة وغير مطلقة ، وكذلك حال من خاف على نفسه الانحراف بفعل تيار ما . وبالتالي تخضع العزلة لأحكام الإسلام من وجوب وحرمة واستحباب وكراهة بمقدار ما تحققه من عائد ونفع للشخص المعني وللمجتمع .

العزلة والجهاد ترتبط بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود من عدة جهات ، من حيث أخذ الموعظة من حال الظلم ، وولاية كل صاحب أطروحة قبل قيام القائم حتى لا يدعي امكانية تحقيقه ما يحققه القائم عند قيامه ، وإدراك عيوب العقائد الظالمة عند مقارنتها بعقيدة الإسلام بعد الدراسة والتمحيص ، ووصول المجتمعات الإنسانية إلى مرحلة الانتظار المتحمس لدولة عادلة .

كما أن العزلة يمكنها أن تكون مشاركة في فعاليات التخطيط الإلهي لليوم الموعود إذا كانت مطابقة للقواعد الإسلامية ، مع ملاحظة أنها أقل وابطأ إنتاجية من العمل داخل المجتمع ، لأنها ترتبط بطرف واحد ، بينما العمل يرتبط بعدة أطراف ، وأنها اقرب للراحة والاستقرار ، بخلاف العمل الذي يزيد من نشاط المرء ويوفر فرصاً اكبر للتمحيص المنتج .

يجب في زمن الفتن – بحسب ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن طريق العامة – الاعتزال عن تأجيجها أو السعي في توسعتها ، وكذلك الاعتزال عنها ، في الأرياف أو البوادي أو اي ملجأ ، إذا لم يستطع الإنسان الصمود بوجه تيارها أو نفع الأمة بعمل صالح ينقذ من شرها .

فيما ورد في بعض مصادر العامة – غير الصحيحين – وجوب الاستسلام المطلق أمام سيف الفتن داخل المجتمع المسلم ، والتخلص من كل سلاح شخصي ، حتى وإن دخل أهل الفتنة دار الإنسان المسلم . وهي لا شك روايات من صنع الجهاز الحاكم الظالم ، لأن الدفاع عن النفس والعرض ، ونصرة الطرف المحق في أي نزاع ، من الواجبات الأساسية في الشريعة الإسلامية .

وعلى قواعد الإسلام الثابتة يجب معالجة الروايات الواردة عن طريق العامة والخاصة التي تحث على أن يكون الناس أحلاس بيوتهم في زمان الفتنة ، بمعنى عدم الانسياق مع سلبياتها فقط ، والعمل على درءها ، ما لم يقطع المرء بضعف قوته أمامها .

فيما الروايات الداعية إلى الصبر وطاعة الحاكم الظالم المنحرف ، وإن سرق المال وجلد الظهر ، فهي لا تخلو من كونها صادرة عن رسول الله بشقها الفاضح للظالمين وتمت إضافة وجوب الطاعة من قبلهم ، أو أنهم بعد اتساع ظلمهم لم يجدوا ما يمنع من بيانه مع الحث على طاعتهم مع نسب الجميع إلى رسول الله . وهي روايات غير منسجمة مع قواعد الشريعة الإسلامية ، كما أنها معارضة بروايات أخرى في الصحيحين وغيرهما تمنع الطاعة للحاكم في المعصية .

وكذلك اخبار السكوت في عصر الفتنة لا تخلو من جواز تقييدها بما حثت عليه اخبار اخرى من ضرورة قول الخير أو الصمت ، بمعنى أن الكلام السلبي في زمان الفتن فعله كفعل السيف الباطل ، لكن الكلام الحق الذي يطفئ الفتنة لو يرد أحد طرفيها الباطل موجب لسعادة الدنيا والآخرة .

ومن هنا كانت **اخبار العمل بالتقية في مصادر الإمامية** مساوقة لأخبار وجوب العزلة الواردة في مصادر العامة . فكلاهما يعطي مضمون حفظ نفس وجماعة وعقيدة المؤمنين أمام الكثرة المنحرفة أو الكافرة ، وإن اختلفت التسميتان . ولا يجوز الخروج عن حد التقية الواجبة أو الوقوع في فخ التقية المحرمة ، بل يجب أن تخضع التقية – كما تخضع العزلة – لضوابط الشريعة الإسلامية ، حتى يظهر المهدي عليه السلام وترتفع التقية بإذن الله له .

الانتظار الفوري للفرج بظهور المهدي عليه السلام من أهم تكاليف عصر الغيبة ، كما ورد في الروايات الإسلامية . وللمنتظرين في عصر الغيبة الكبرى فضل عظيم بحسب القواعد الإسلامية ، بل قد يفضل هذا العصر من حيث نتائج التربية والتكامل على عصري النبوة والظهور ، فالمنتظِر المسلم مؤمن بالغيب في عصر ليس فيه وحي مباشر نسدد ولا نبي محسوس بعدالته وانتصاراته الموفقة الهياً وشخصيته القوية المؤثرة . ويكون المنتظرون بحاجة الى وجدان أعمق وجهد اكبر لإحراز العقيدة الصحيحة ، وهم يواجهون نوعين من الضغوط ، ضغط العمل التطوعي الاختياري ، وضغط المجتمع الخارجي المعارض الأشد إيلاماً وقهرا . فضلاً عن الاغراء العظيم الناتج عن شهوات النفس ومصالحها بصورة دائمة ، أو عن ما هو أعظم لا سيما في عصر الغيبة الكبرى وحده حين يرى المؤمن ما للحضارة المادية من هيبة ووجود وقوة وهو أعظم عليه في الاغراء . وبالتالي يصعب على الإنسان الإيمان بالغيب ، لا سيما المهدي عليه السلام ، مع ما يرى المرء من ألم الظلم واتساع رقعته وانتشاره ، حتى ييأس بعضهم من ظهوره في ظل تلك الفترة التي يراها طويلة نسبياً من عمر البشر ، لكن من يستشعر مسؤولية المساعدة في قيام الدولة العادلة الكاملة سيكون ناجحاً في عملية التمحيص حتى قبل قيام تلك الدولة .

ولقد روت الكتب الاسلامية الفضل العظيم للمتمسكين بدينهم ، الصابرين على قهر عدوهم ، في زمان الغيبة الكبرى ، وذلك لأن يفتقدون ذلك الوهج العاطفي والدفع الثوري الذي كان متوفراً لغيرهم من المؤمنين ، كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أصحاب المهدي عليه السلام الذين حظوا بالحضور الشريف المباشر للقائد العالمي . ومن ثم لأن زمان عصر الغيبة لا يشبه الزمان الابسط اجتماعياً وسياسياً الذي سبقه ، أو الزمان المهدوي المبارك الذي يليه ، بل هو زمان في مجمله ضد الدين وضد المؤمنين ، يكون فضل الصبر فيه اعظم من كل فضل . والمعيار في رتبة هذا الفضل الاعظم هو الإخلاص .

وتنقسم **مسؤوليات البشر** ، من أعداء وأولياء الإمام المهدي عليه السلام ، في الميزان العقلي والشرعي وفق درجة الاختيار التي يعيشونها ، والذي قد يسلبه الجبر أو الجبر الشديد والإكراه ، كما يكون لسعة المعرفة ومستوى تجلي البراهين في ذهن الإنسان دور في تحميله المسؤولية الشرعية ، ومن ثم الثواب والعقاب ، تجاه قضية الإيمان بالامام المهدي عليه السلام. وأشد من قد تقع عليهم العقوبات من أعدائه هم الذين عاصروا زمانه وشاركوا في مطاردته ، لما عرفوا من الحق وفعلوا من السوء .

ويكون من يعيش في زمن الغيبة الكبرى أقل مسؤولية تجاه وجوب الإعتقاد بالمهدي عليه السلام ، لما اعتاد عليه البشر من الميل إلى الحس ، ويكون من يؤمن به أكثر أجراً لذات السبب الذي يجعله بحاجة إلى جهد مضاعف للإيمان به عليه السلام . لكن هذا لا يمنع أن يكون بعض أعدائه في زمان الغيبة الكبرى أشد جرماً واوجب عقوبة عند الله لما يفعلون من معاصي مبتكرة مبتدعة متعددة متكثرة تفوق ما فعله غيرهم في أزمنة أخرى ، فتتضاعف المسؤولية بتضاعف الجرم .

ولو علم الله أن أولياءه يرتابون في قضية إنتظار المهدي عليه السلام ما غيّب عنهم إمامهم ، ولتسبب أسباباً أخرى لتحقيق غرضه ، لكنه جعل من أسباب الفطرة ما يمكّن كل إنسان ، مسلم أو غير مسلم ، من التساؤل والوصول إلى ضرورة الإعتقاد بالمهدي عليه السلام .

شرائط الظهور

العلامات والشروط الخاصة بظهور المهدي عليه السلام تجتمع في جهات وتختلف في جهات أخرى . فهي جميعاً كاشفة – بتحققها – عن بدء الظهور الميمون له عليه السلام . لكنها تختلف في كون الشروط – مثل توفر العدد الكافي من المخلصين الممحصين – علة وسبب لتحقق المشروط الذي هو الظهور ، بينما العلامات لا ترابط سببي بينها وبين الظهور نفسه ، بل هي دالة وكاشفة عن قربه ، كما يكشف هيجان الطيور عن قرب العاصفة مثلاً دون أن تكون للطيور علاقة بقيام العاصفة . لكن ما تحققت صحة نسبته إلى النبي وأهل البيت عليهم السلام من العلامات لا يمكن أن يتخلف باعتبار أنهم صادقون . والعلامات كذلك قد تكون متفرقة في الزمان والمكان ومتناثرة مبعثرة لا يربطها رابط ، كما يمكن التحقق من حدوثها ، على عكس الشروط التي ترتبط على طول الزمان مهما تباعد وقتها عن بعضها ، ولا يمكن للإنسان العادي التحقق من تمامها . والعلامات كذلك مؤقتة تزول بزوال حادثها ، فيما الشروط باقية ببقاء التخطيط الإلهي العام حتى بعد الظهور .

وشروط ظهور المهدي عليه السلام وقيامه في اليوم الموعود ثلاثة ، وجود الأطروحة العادلة الكاملة ، ووجود القائد الفرد القادر ، ووجود العدد الكافي من الناصرين الواعين المخلصين . فيما أن وجود العدد الكافي من القواعد المستعدة لقبول نتائج اليوم الموعود كجماهير عالمية تقتضيه رغبة الكثير من الناس في بناء مجتمع صالح ، ويأس الكثير أيضاً من التجارب السابقة التي ملأت الأرض ظلماً وجورا. والخلاصة أنه بتوفر الأطروحة العادلة الكاملة وقائدها وتوفر القواعد الجماهيرية المنتظرة للحلول الإنسانية الكبرى ، لا يظل إلا توفر المخلصين الممحصين الواعين الذين يصلحون لقيادة العالم ، وهو ما يدور حوله موعد يوم الظهور المبارك . وبهذه الشروط يتحقق نجاح الدعوات المبدئية جميعا ، التي لها نظرية وقائد ومؤيدون واعون مخلصون وجمهور راضٍ عنها مناصر لها ، فإذا انخرم أحد الشرطين الأخيرين وجب على أصحاب هذه الدعوة الرجوع الى مسلك التقية .

يقوم التخطيط الإلهي العام بمهمة إعداد القائد المناسب لقيادة العالم بشريعة إلهية ، وذلك عن طريق تسلسله في سلسلة آباء تنتهي إلى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي تمت تربيته بمعجزة الوحي المباشر ، بعد إحراز قابليته الذاتية لتلقي أسس التربية الكاملة . وكل طريق لا تنتهي إلى الوحي لا يتسنى لها أن تعد قائداً يعي تفاصيل الشريعة الإلهية العادلة الكاملة أو طرق إيصالها إلى الناس ، مهما بلغ باقي القادة من ثقافة عامة أو عسكرية . ولا يستطيع التمحيص في زمان الغيبة الكبرى الا إعداد أجيال محدودة على مستوى من الوعي والإخلاص الذي يفتقر إلى توجيهات المهدي المنتظر دائما . وعليه فكل دعوى مهدوية لا تنتهي إلى هذا الطريق تكون زائفة مهما بلغت من انتشار إقليمي ، وكل قيادة سياسية لا تنتمي إلى هذه السلسلة النبوية لا تعني أكثر من دولة دنيوية عادية مهما بلغ حجمها ، حتى إذا كان عنوانها الخلافة .

ولما كان الله عز وجل كامل بالكمال اللانهائي كان الوصول إليه بالتكامل مفتوح ومستمر . وعليه فلا مانع ، بل قد يكون من الضروري ، استمرار تكامل القائد العالمي في مرحلة ما بعد العصمة . فتكون أقل درجات القائد هي العصمة ، ولا سقف لأعلاها . الأمر الذي يعمّق من رصانة ومتانة وشرف التطبيقات المهدوية في اليوم الموعود وما بعده .

وتكون أسباب التكامل عامة ، وفي المهدي خاصة ، ثلاثة على الأقل : الإلهام ، والتمحيص الناتج من صعوبات زمان الغيبة الكبرى ، والتضحيات التي يبذلها اختياراً لأجل استنقاذ الناس وبناء دولة العدل .

وقد قام الدليل الروائي الإسلامي ، والدليل الفلسفي ، على وجود الإلهام ، وعلى دخالة التمحيص والتضحيات في بلوغ مراتب الكمال .

ولا يمنع ذلك أن يكون الائمة السابقين انتهاءً إلى النبي الأعظم مطلعين على معارف الإلهام تلك .

كما قد يكون المهدي أعظم رتبة من آبائه عليهم السلام ، بحكم ما توفر له من فرص التكامل ، سوى جده المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وجده الوصي أمير المؤمنين علي عليه السلام ، لما لهما من خصوصية .

وعليه فنظرية ولادة المهدي في آخر الزمان عند غير الشيعة غير تامة وغير منتجة ، لما يقتضيه ذلك من قصور المهدي عن بلوغ مراتب الكمال العليا ، بسبب انقطاعه الواضح عن الوحي المباشر ولو بالواسطة ، وافتقاره إلى الزمان اللازم للتمحيص المنتج للكمال ، ومن ثم هو لن يكون سوى فرد ممحص في المجتمع ، وأنصاره بالضرورة أقل رتبة منه .

علامات الظهور

إن علامات الظهور المبارك تنقسم إلى أربعة أقسام ، ما كان مندرجاً في التخطيط الإلهي وقريباً من زمان الظهور ، مثل قتل النفس الزكية ، وما كان مندرجاً في التخطيط الإلهي وبعيداً عن زمان الظهور ، مثل قيام وانهيار دولة العباسيين والحروب الصليبية ، وما كان كونياً وقريباً من زمان الظهور مثل الكسوف والخسوف ، وما كان كونياً وبعيداً عن زمان الظهور ، مثل شحة الأمطار .

وتكون وظيفة مجمل العلامات الكشف عن قرب ذلك الظهور الميمون ، لا سيما لمن ينتظره من المؤمنين الواعين . أو منبهاً للغافلين من الناس ، الذين يريد الله عز وجل استنقاذهم ، أو القاء الحجة عليهم . لذلك هي مركزة في حوادث العالم الإسلامي لتنبيه الفئة المهمة في نظر التخطيط الإلهي العام وهم المخلصون من المنتظرين لإمامهم .

ويمكن ادراج معظم أخبار العلامات السابقة على قيام الساعة لدى عامة المسلمين في سياق أخبار العلامات السابقة على قيام المهدي عليه السلام لدى الخاصة من المسلمين ، بدلالة قرائن داخلية أو براهين خارجية .

وقد ترد بعض الإشكالات على بعض شؤون العلامات ، من كونها قد تكون منبهة لأعداء المهدي عليه السلام . والحقيقة أن الإنسان الذي يلتفت إلى تلك العلامات ويراقب حدوثها هو المؤمن المخلص المنتظر لدولة العدل . أما أعداء المهدي عليه السلام فربما تشغلهم دنياهم ومصالحهم عن التفكير بحقيقة ومصداقية تلك العلامات ، كما أنهم يعجزون في الغالب عن فهم رموزها .

وقد تميزت الروايات الإسلامية العامة والخاصة بالإخبار عن حوادث المستقبل التي لم تقع بعد ، لكنها حدثت بعد ورود أخبارها في الكتب الاسلامية الاولى بقرون مثل الحروب الصليبية . كذلك أخبرت الروايات عن انحراف الأغلب من قادة المجتمع الإسلامي عموما . فيما انفردت روايات الخاصة من شيعة أهل البيت عليهم السلام بذم بني العباس على لسان النبي الاكرم محمد صلى الله عليه وآله ، وذكرت معاناة ذرية الرسول من شرورهم ، كما ذكرت معاناة بني العباس من ثورات العلويين. فيما انفردت روايات العامة بمدح بني العباس ،

وربما نسبت المهدي إليهم ، باعتبار أن العامة يؤمن بعضهم أن اسم المهدي واسم أبيه يشبه اسم النبي واسم أبيه ، لكنّ الزمان أثبت أن كل ذلك إنما كان تملقاً للسلطة العباسية القائمة حينئذ .

ومن تلك الأخبار كانت أخبار الرايات السود الثائرة من خراسان باتجاه الغرب . وهي في وقوعها على احتمالين ، أنها وقعت فعلاً قبل قرون بثورة ابي مسلم الخراساني على بني أمية ، وهو ما يرجحه السيد الشهيد الصدر قدس ، أو أنها تقع في المستقبل في ثورة خراسانية أخرى ، لا سيما وأن الأخبار تؤكد كون المهدي فيها أو أنها تسير برياتها إليه وعلى الناس أن يأتوا إليها ولو حبواً على الثلج . وفي إشارة الثلج دليلاً ربما على مكان وزمان خروج تلك الرايات ، فلو كانت رايات ابي مسلم الخراساني خرجت وقت الثلج شتاءً كان ترجيح السيد الشهيد الصدر قدس مقبولا ، وإن لم تكن كذلك كان الترجيح لروايات المستقبل .

وأخبر الائمة عليهم السلام عن زوال دولة بني أمية ، كذلك اختلاف أهل المشرق وأهل المغرب ، سواء داخل الحدود الإسلامية ، كاختلاف العباسية في المشرق والاموية في المغرب ، أو العباسيين والفاطميين ، أو اختلاف كتلة الغرب الرأسمالية مع كتلة الشرق الشيوعية ، وهو ما حدث في كلا الحالتين.

كذلك خراب البصرة التاريخية الكبرى ومقتل أهلها على يد الزنوج ، بقيادة علي بن محمد ، أحد المنتسبين إلى أهل البيت ، والمنبوذ عنهم فكرا .

ومن الأخبار التي كانت معجزة قطعية على صدق نبوءة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أخبر به عن الحروب الصليبية والأوروبية عموما . حيث أنها دونت بالقطع على يد ابن داوود وابن ماجة مثلاً في القرن الثالث الهجري ، فيما وقعت بداية الحروب الصليبية في القرن الخامس الهجري . وقد شهدت العلاقات الرومية الإسلامية هدنة لفترة من الزمن ، ثم تعاون بعض الروم مع بعض المسلمين لقتال بعض ملوك الروم ، حتى وصل بعض بني حمدان بالاشتراك مع (ورد) الرومي إلى مشارف القسطنطينية قبل أن ينهزموا . ثم طمع الأوروبيون الفرنجة ببلاد المسلمين ، وليس الروم ، فرفعوا شعار الصليبية والانتصار للمسيحية ليحتلوا بلاد المسلمين ، فدخلوا بيت المقدس وحكموه أكثر من قرن ، بعد مذابح كبيرة بحق المسلمين ، وبعد نهب ثروات المدن الإسلامية . حتى غضب عليهم صلاح الدين الأيوبي وإخراجهم من بلاد المسلمين . لكنهم تعلموا من تلك السنين والحروب والتواجد في بلاد المسلمين طرق الحكم والتعليم والصناعة والزراعة والتجارة ، فكانت تلك الحروب بداية النهضة الأوروبية الحديثة .

ثم **جاء الأوروبيون واحتلوا بلاد المسلمين** مرة أخرى ، بشعارات جديدة ، ودعاية علمانية ، لكنها تستبطن المسيحية الصريحة وهذا ما لم يشر إليه السيد الشهيد الصدر قدس سره ، حتى جعلوا بلاد المسلمين مزقاً وشعوبها فرقا ، فكانت كل ثورات المسلمين المتفرقين تنتهي بالشهادة في الغالب . وهذا كله ما اوضحته احاديث الحروب الإسلامية–الصليبية الأوروبية الواردة عن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن العلامات التي أخبر بها النبي الكريم صلى الله عليه وآله وتحققت قتال المسلمين لقوم من (الترك) صغار العيون وذوي وجوه عريضة . وكذلك فتح القسطنطينية .

وهناك من العلامات المتحققة الدالة على صدق قائليها من المعصومين عليهم السلام ما انفرد بإيرادها الشيخ (المفيد) . منها قتل **النفس الزكية** ، وقد قُتلت عدة أنفس زكية على مدار التاريخ الاسلامي ، لا سيما من ذرية الإمام الحسن عليه السلام ، بل لعلّ منهم مؤلف الكتاب السيد الشهيد (محمد الصدر) قدس سره ، وهو من ذرية الحسين عليه السلام ، اغتاله النظام البعثي الصدامي بعد تصديه للمرجعية العامة وولاية الفقيه وتغييره سلوك الناس نحو الأفضل . ومن العلامات **اختلاف بني العباس** بينهم . ومنها إقبال **الرايات السود** من المشرق ، التي قد تكون مصداقها رايات (ابي مسلم الخراساني) . ومنها ظهور (**المغربي**) واحتلاله الشامات ، ولعل أبرز مصداق له (المعز معد بن إسماعيل) الافريقي صاحب الدولة الفاطمية. ومنها نزول (**الترك**) الجزيرة في العراق ، وقد نزلها العثمانيون الأتراك عدة قرون . ومنها نزول **الروم** الأوروبيين (الرملة) من مصر أو الشام ، وقد نزلها الفرنسيون والبريطانيون فعلا . ومنها **انبثاق الفرات** ودخول فيضانه أزقة الكوفة ، وهو ما حصل عدة مرات . ومنها **عقد جسر** على دجلة من جهة (الكرخ) ، وهو ما حصل كثيرا . ومنها **اختلاف صنفين** من العجم ، وهم جميع الناطقين بغير العربية ، وهو ما تكفي الحروب العالمية الكبرى على ثبوت تحققه .

لكن خصوصية نزول الروم (الرملة) ، وعقد الجسر مما يلي (الكرخ) ، وينبثق نهر الفرات ، واختلاف صنفين من العجم ، تحتاج إلى مناقشة أوسع مما تناوله السيد الشهيد (الصدر) قدس سره ، لأسباب ونتائج مختلفة .

والعلامات الدالة على الظهور الميمون إن كانت متضمنة الانحراف فهي قبله ، وإن كانت متضمنة الايمان والرخاء فهي بعده .

وما دلّ منها على الإعجاز يجب إخضاعه لقانون المعجزات ، من كونها ضرورة لإقامة الحجة ، أما ما أمكن تفسيره على أنه رمز يجري في حدوثه بمجرى طبيعي فيجب فيه ذلك .

ومن تلك الروايات قضية عمر **الدجّال** الطويل . حيث يرى أبناء العامة من المسلمين في بعض رواياتهم أنه مولود من زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه لا زال حيا . والغريب أنهم يرون ذلك الإعجاز ممنوح من الله للدجّال الذي يغري الناس بالباطل ولا يرونه للمهدي المنتظر عليه السلام الذي وظيفته هداية الناس .

فيما أن أغلب الروايات الواردة بحق أحوال الدجّال في مصادر العامة لا تصلح عند التشدد السندي . كما أنها قد تتعارض في المضمون ، كما في رواية طول الأيام وقصرها . أو أنها تفيد قدرة الدجّال على إقامة المعجزات ، وهو خلاف التخطيط الإلهي ، كما في قتل نفس مؤمنة واحيائها .

ومن العلامات أيضاً ما ورد من **خروج النار التي يضيء نورها المنطقة بين الحجاز وبصرى الشام** ، والتي قد تكون كناية عن هدى المهدي عليه السلام ، كما عبّر السيد الشهيد الصدر قدس سره ، أو تكون آية خاصة كما هو الراجح .

كذلك هناك من الآيات ما هو متأخر عن الظهور ومرتبط بقيام الساعة ، مثل **نار اليمن** التي تحشر الناس إلى المحشر ، والتي ترك السيد الشهيد الصدر قدس سره مناقشتها . فيما قد تكون فيها مناقشة قريبة أخرى .

كذلك من العلامات **انحسار ماء الفرات عن كنز من ذهب** ، يتسبب انهيال الناس عليه بالقتل الواسع ، فيما تكليف المسلمين فيه ألا يشاركوا في أخذ الكنز أو القتال . والكنز قد يكون حقيقياً كما هو ظاهر العبارة ، أو مجازياً يشير إلى الثروات الطبيعية أو الحق الواجب . وفي الأمر مناقشة أيضا .

ومن العلامات **المسخ** ، وهو قد يعني الانتقال إلى الضلال ، لأن هذه الأمة مرحومة لا يقع فيها المسخ الحقيقي . إلا أن ما لم يشر السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره هو كناية المسخ عن ما يحدث اليوم من تغيير الجنس فعلاً أو سلوكا ، ومن انسلاخ الناس عن انسانيتها واقترابها بقوة من البهيمية .

ومن العلامات **خروج أموات وتزاورهم** . كذلك **طلوع الشمس من مغربها** ، التي إن كانت على الحقيقة فهي من علامات الساعة ، وإن كانت مجازاً فهي دلالة على ظهور المهدي عليه السلام. وأيضاً **الصيحة** التي تنبّه النائم واليقظان ، وتشير إلى المهدي عليه السلام ، والتي تكون من الآيات الكبرى التي لا مناص من الإيمان بمضمونها ، لولا ما قد يشيعه الماديون من تفسير طبيعي متكلف لها لصرف الناس عن مضمون حجيتها .

فيما تكون علامة **الخسف بجيش الظالمين في البيداء** مطابقة لقانون المعجزات ، لأنها في سبيل إنقاذ مجموعة مؤمنة من أهل الحق المخلصين العائذين بالبيت الحرام بلا عدد ولا عدة .

ويناقش السيد الشهيد الصدر قدس سره مجموع العلامات وثبوتها من عدمه ، ومستوى ارتباطها ببعض . وينتهي إلى ترجيح احتمال كون **الرايات السود** من خراسان هي رايات أبي مسلم الخراساني . رغم أن في هذا الأمر مناقشة ، لأن هناك روايات تشير إلى تسليم تلك الرايات إلى الإمام نفسه عليه السلام ، وأنه قد يكون فيها .

وأن **النفس الزكية** المقتولة قبل خروج القائم عليه السلام هي نفس محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب . وفي هذا الأمر مناقشة أيضاً ، لورود روايات مفردة تجعل مقتلها قبل قيام القائم بأيام ، لم يأخذ بها السيد الشهيد الصدر قدس سره بسبب تشدده السندي .

فيما أن أهم علامة قبل قيام القائم عليه السلام قد حذّر منها كل الانبياء اممهم وهي ظهور **الدجال** لا يمكن قبول رواياتها كما هي ، لأنها تتضمن معجزات لا تنبغي لظالم . فيكون صرفها إلى رؤية اجتماعية شاملة اولى ، يكون النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قصدها بكلمات رمزية تحترم قانون "حدّث الناس على قدر عقولهم" .

أما **السفياني** فقد اختصت به اخبار الإمامية ، في مقابل اخبار الدجال التي غلبت على اخبار العامة . وهو على ما يظهر من الاخبار من ولد ابي سفيان ، يملك تقريباً كل دول بلاد الشام ، سوى لبنان ربما ، ويكون من صنائع الأمم المسيحية ، يبحث عن شيعة علي بن ابي طالب ليقتلهم ، وفي زمانه يثب الجار على جاره الشيعي ليسلمه مقابل المال . كما أن السفياني أقل في حركته وسيطرته من الدجال ، إلا أنه هو من يلاحق الإمام المهدي عليه السلام ، وبجيشه تخسف البيداء .

و**اليماني** من علامات الظهور أيضا ، وهو على بعض الروايات أهدى الرايات في عصر الغيبة الكبرى ، بما يفوق راية الخراساني ، فضلاً عن رايات الدجال والسفياني .

فيما أن خروج أقوام **يأجوج ومأجوج** من خلف السد الذي بناه ذو القرنين من علامات الظهور أيضا . وهم على الأرجح أقوام بدائية كانت تثير الفساد في الأرض ، حتى منعهم ذو القرنين من الوصول إلى الحضارات القديمة المتمدنة ، وأن عبورهم السد لن يكون إلا بوصولهم إلى تقنية تمكنهم من ذلك . وتلك الشعوب وفق المعطيات التاريخية والمعاصرة لا يُستبعد أن تكون شعوب أوروبا ، التي عزلها الاسكندر المقدوني بالحضارة اليونانية ووريثتها البيزنطية عن الشرق ، حتى استطاعت الخروج عن سد اليونان والعبور باتجاه الشرق ، ليكون أفرادها اليوم من كل حدب ينسلون كما جاء في النصوص الإسلامية ، وأنهم قد تسببوا بجفاف المياه في الشرق الأوسط

، بصورة مباشرة ، أو بتأثير التلوث الذي احدثوه ، كما أنه غزوا الفضاء ، وأنهم يتعرضون اليوم للأوبئة ، وكل ذلك مذكور في روايات خصائص أقوام يأجوج ومأجوج . وهو ما لم يذكره السيد الشهيد الصدر قدس سره .

والرؤية الرمزية التي يراها السيد الشهيد الصدر قدس سره للدجال أنه يمثّل الحضارة الغربية المادية المهيمنة المنتشرة في جميع دول العالم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وهيبتها وتقنيتها والحادها العملي ، وممارستها دور الربوبية على الناس ، لا الألوهية. مما يفسح المجال لانبهار من فقد هويته أثناء العصور العلمانية في العالم الإسلامي بتلك الحضارة ، وظنه بتلازم ماديتها العقائدية مع ماديتها التقنية . فتكون من أشد الفتن قسوة في التاريخ . وأن المؤمن وحده من يستطيع تمييز أن ماءها ونارها ليست على الحقيقة ، وانما هي مظاهر مادية تغري أو ترهب المؤمنين بالعقيدة الإسلامية ، ولا يحتاج حينئذ المؤمن إلى أكثر من الإيمان ليميزها . ولن تظل سوى مكة والمدينة باعتبارهما الفكرة الإلهية والفكرة الإسلامية تقاوم ذلك التأثير المادي الجارف . وبتقنيتها تستطيع التأثير في مصادر المياه والامطار وغيرها . فيما أن عمرها الطويل ، فيما يرى السيد الشهيد الصدر يمتد من زمان المنافقين في زمن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم . لكن في الحقيقة أن عمرها يمتد من زمان النبي باعتبار أن الحضارة الغربية المادية بكل فروعها وريثة الحضارة الرومانية التي كانت معاصرة للنبي الكريم صلى الله عليه وآله ، والتي ظلت قائمة بعده ، فيما اختفت الحضارة الكبرى الأخرى وهي الحضارة الفارسية تماماً عن الوجود . وتمتد اصول وجذور الحضارة الرومانية بعقيدتها المسيحية المشوهة إلى الحضارة الفرعونية الكافرة ، وبالتالي فعمر الدجال طويل فعلا ، ولذلك حذّر منه الأنبياء اممهم .

أما **السفياني** فهو رمز للفكر المنحرف داخل العالم الإسلامي . وفي رؤية السيد الشهيد الصدر قدس سره أنه ينطلق من فكر ضحل جاف ، في إشارة إلى انطلاقه من الوادي اليابس .

والحقيقة أن الوادي اليابس هو في الحقيقة وادي (نجد) وساحل الخليج اليابسة التي انطلقت منها اخر جيوش قاتلت النبي حتى بعد فتح مكة ، ومنها انطلقت جيوش معركة (الجمل) التي قاتلت وريثه الشرعي علي بن ابي طالب ، ومنها انطلق جزء كبير من جيش بني أمية ضده في (صفّين) ، ومنها انطلقت الجيوش التي تركب الخيول الأعوجية التي داست صدر الحسين بن علي في كربلاء ، ومنها انطلقت جيوش القرامطة ، ومنها انطلقت عصابات قطع طريق الحجيج ، ومنها انطلقت العقيدة الوهابية السلفية ، ومنها انطلقت إلى العالم الجماعات التكفيرية ، والتي كانت تلاحق شيعة علي بن ابي طالب في كل مكان ، وفي العراق وسوريا صار يثب الجار على جاره ليسلمه أو يقتله لأنه من شيعة علي . وكانت هذه الجيوش والجماعات ناصبية معادية

لعلي بن ابي طالب وشيعته بذات الروح الأموية السفيانية التي قتلت وسبت آل بيت النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله . ومن الواضح تاريخياً تأسيس الغرب المادي للحركة الوهابية في الوادي اليابس متمثلاً ببريطانيا ، كذلك تأسيس الجماعات الجهادية التكفيرية على يد الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع الحكومة الوهابية السعودية في الثمانينات من القرن العشرين لمحاربة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان ، والتي تفرعت عنها الكثير من الحركات السفيانية المعاصرة . ومن هذا الوادي اليابس اليوم عائلة آل سعود وعائلة آل نهيان وعائلة آل مكتوم وعائلة آل ثاني وعائلة آل خليفة ، وكلهم وكلاء للدجال بحضارته المادية الغربية الأنانية العوراء التي لا ترى إلا مصلحتها .

ومن ثم يكون **اليماني** منتمياً إلى اليمن في نظر السيد الشهيد الصدر قدس سره ، سواء كان ممن شارك في ثورات سبقت في التاريخ ضد الظلم ، أو ممن لم يخرج بعد ، وأنه يدافع عن الحق وأهله . لكن ما لم يناقشه السيد الشهيد الصدر كون هذا اليماني الذي يحرّم بيع السلاح بين المسلمين لابد أن يكون ذو شأن ديني مؤثر في منطقة حركة المهدي عليه السلام ، وهي العراق ، أو الحجاز ، ومن ثم هو مرجع ديني لأهل الحق ، الذين هم بناء على سياق التاريخ الشيعة أنفسهم ، وبما أن الحجاز يُستبعد ظهور مرجع ديني شيعي فيها ذي شأن كبير لابد إذاً أن ينحصر الأمر بمرجع ديني شيعي عراقي يحرّم بيع السلاح في العراق بين المسلمين لغرض ما ، ويكون من المجتمع اليماني الذي حمل هذا الوصف في التاريخ ، كمن ينتمي إلى قبائل الازد مثلا .

تبقى **النفس الزكية** ، التي إذا لم تكن هي شخصية محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب التاريخية ، فهي في نظر السيد الشهيد الصدر شخصية مستقبلية مهمة في حركة الإمام المهدي عليه السلام تكون رسوله إلى العالم ، ويكون من شدة خطورة حركتها على الظالمين والمنحرفين أنهم يعمدون إلى قتلها في البيت الحرام باستعجال وارتباك وصلافة .

فيما تكون علامات **الصيحة والنداء** باسم المهدي عليه السلام وكسوف الشمس وخسوف القمر ربما جلية لا رمزية ، لتنبيه المؤمنين نحو إمامهم المهدي عليه السلام .